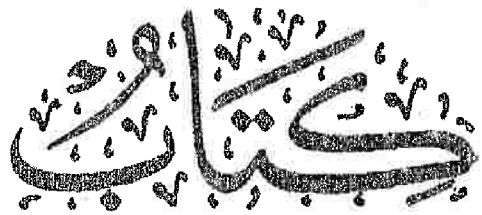

مصباح الهداية

الى

الفوز فى البداية والنهاية

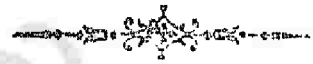

تأليف

المفتقر الى الله تعالى

محمد طلعت المصرى

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

obeikandl.com

مصباح الهداية

الكتاب الاول

تأليف

المفتقر الى الله تعالى

محمد طلعت المصري

مواضيع هذا الكتاب

خطبة الكتاب لابانة الغرض من تأليفه
المقدمة . في لفت الانظار الى وجوب اليقظة والتبصر لسلوك سبيل النجاة
روح موجودة وخالدة
الباب الاول معلوم مجهول او مجهول معلوم
الدليل على وجود الخالق عز وجل من طريق الفلاحة
الدليل على وجود الخالق عز وجل من طريق الصناعة
الدليل على وجود الخالق عز وجل من طريق الصناعة
الدليل على وجود الخالق عز وجل من طريق التجارة
الدليل على وجود الخالق عز وجل من طريق الرياضة
الدليل على وجود الخالق عز وجل من طريق الميكانيكا
البرهان على وجود الخالق من طريق الكيمياء
البرهان على وجود الخالق من طريق الفلك
البرهان على وجود الخالق من طريق الطب
البرهان على وجود الخالق من طريق الادارة والنظام
دليل عام على وجود الصانع القديم سبحانه وتعالى من طريق العقل
اختلاف الناس من حيث معرفته سبحانه وتعالى
ادلة الموحدين المنزهين على أنه واحد غير متعدد من طريق العقل
أدلة الموحدين المنزهين على أنه أزلي أبدي من طريق العقل
الكلام على أسمائه تعالى
في حكمة التكوين
في حكمة التكليف

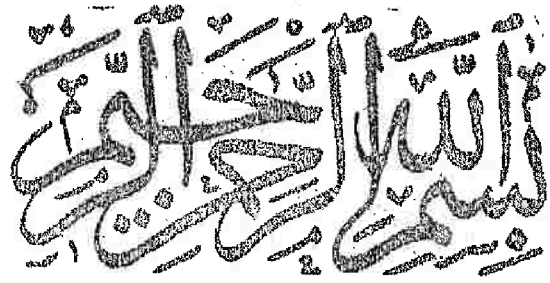

خطبة الكتاب

لأبانة الغرض من تأليفه

أحمد الله تعالى حمداً بلا حد ، وهو الواحد الأحد، أنعم على عباده المؤمنين، بنعمة الايمان وحسن اليقين ، وأصلى وأسلم بلاحصر على حضرة سيدنا ومولانا محمد خاتم المرسلين ، ونور الهدى المبين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، و(بعد) فالمعلوم من تاريخ الدعوة الاسلامية أن الوفود التى كانت تطلب الدخول فى الاسلام كانت تفد على حضرة الرسول الأعظم ،صلى الله عليه وسلم فتمكث لدى حضرته الرفيعة يوماً أو بضع أيام وتعود من لدنه عالمة بالأوامر والنواهى الدينية من سائر أنواع العبادات حتى انه لما ورد على حضرته العلية أحد وفود اليمن ومكث ما شاء الله أن يمكث من بضع الأيام القليلة قال قائل منهم عند ارادة الانصراف : ألا ترسل معنا من يعلمنا أمر ديننا يا رسول الله فقال حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم أليس منكم فلان وأشار الى واحد منهم فقالوا : بلى فقال : هو يعلمكم . ولكن لما مُنِيَ الاسلام فى أمه الكثيرة العدد بمن أكثروا من الاشتغال بالتفسير والتأويل معتمدين على قرائحهم وتصوراتهم ثم انجروا

بعد ذلك الى الجدل والأخذ والردّ ما بين بعضهم والبعض الآخر تجريحاً وتعديلاً فصارت بذلك كتب الدين من المطولات بالشروح والحواشي والتقارير والتعليقات مما جعلتها قاصرة على العلماء والطلبة الذين يريدون أن يكونوا يوماً ما من علماء الدين فلم يوجد بينها كتاب يتيسر لأحد العوام من المسلمين أو من الأجانب عن الدين الحنيف السهل المبين تناول التعاليم الدينية منه . حالة ان كثيرين اعتنوا بوضع الكتب على حالة البساطة والسهولة فى كثير من العلوم العمرانية الدنيوية ولم يضعوا فى قواعد الدين كتاباً للعوام خالياً من الغموض سالما من التطويل مجرداً من ذكر أساليب التجريح والتعديل بعيداً من ذكر طرق الخلاف وعلله مما يجعل الطالب حاصلا على بغيته فيتوصل به الى عبادة الخالق سبحانه وتعالى بطريق الصواب والسلامة من الخطأ فقد عنيت بوضع كتابى هذا لأقوم بهذا القصد الجميل وقسمته الى خمسة أبواب أولها فى التوحيد وثانيها فى حاجة الخلق الى الرسل واثبات صدق رسالتهم وثالثها فى العبادات بأقسامها ورابعها فى خلق الأعمال وشرح مسألة القضاء والقدر بأسلوب لا يستعصى على العقل فهمه ولا ينافى مقصد الشرع الشريف نظمه والتدليل على ان التوكل لا ينافى الأخذ بالأسباب وخامسها ذكر كثير من الحكم والمواعظ الدنيوية والاخروية وكل ذلك بأسلوب نافع بمشيئة الله تعالى وها هو أقدمه بين يدى نجواى أرجو به دعوة صالحة من المطلعين عليه . وأسأله تعالى لى ولهم حسن الخاتمة

المقدمة

فى

(لفت الانظار الى وجوب العظة والتبصر والعمل لسلوك سبيل النجاة)

ان كل من لديه نصيب من العقل وسلامة التصور يدرك لأول نظرة فى الكائنات المرئية لعينيه انه ما خلق عبثاً وان له موجداً تفضل عليه بنعمة الوجود ونسبة عبوديته لذاته العلية ويدرى من وجهة أخرى أنه يجب عليه لذلك المنعم العظيم الحمد والشكر وحده ، ولهذا جاءت الاديان كلها مبينة لهذه الغاية الجليلة من توحيد الخالق وعبادته وانارت له السبيل فصار واضحاً لمن توفق لسلوكه موقناً بالنجاة ولم تطالبنا الاديان قاطبة بعد هذا الا بأن نأتمر بالمعروف وننتهى عن المنكر وأن لا يبغى بعضنا عَلَى بعض وأن نستعمل جوارحنا فى عمل الخير لكل كائن وأن لا نستعين بنعمة الله خالقنا ومصورنا على ايذاء مخلوق مّا من مخلوقاته لنكون من أهل السعادة لا من أهل الشقاء . ولهذا قد أكثر العقلاء الذين أشغلهم التفكير فيما بعد هذه الحياة فى تحذير الناس من غرورها بذكر فنون من الوعظ والارشاد وضرب الأمثال النافعة فى ذلك ، ومن أولئكم العقلاء الفيلسوف « بيدبا » الهندى بكتابه الشهير المتداول بين الناس (كليلة ودمنه) فقد ذكر فيه مثالين واضحين يحسن بنا ايرادهما

(المثال الأول) طارد أسد انساناً فى الصحراء فلم يجد منه مهرباً

الا بأن يختفى فى بئر صادفها فى طريقه فتعلق بساق شجرة مائلة على فم البئر وكان عند أصل تلك الشجرة المغروس بحافته جرذانان أحدهما أبيض والآخر اسود يقرضانه وفى قاع ذلك البئر تنين عظيم فاغر فاه ، فعوضاً من أن يفكر ذلك الانسان فى التحيل وصولا الى النجاة رأى أمامه حقاً مملوءاً بالعسل كان تركه بعض من مروا بتلك الجهة فتشاغل بالتذوّق منه وفيما هو فى ذلك اذ أتم الجرذانان قرض الساق فأسقطه فى البئر فالتقمه التنين — ومغزاه أن الموت المعبر عنه بالأسد يسعى وراء الانسان ليسلبه الحياة عند انتهاء الاجل الذى ورى عنه بالشجرة بتكرار مرور الليل والنهار على التعاقب اللذين أشار اليهما بالجرذانين الابيض والاسود . وأن ذلك الانسان عوضاً من أن يتدبر الأمر لنجاته ألهته لذة الدنيا القليلة الفانية المومأ اليها بالعسل القليل فسقط فى القبر المعبر عنه بالتنين

(المثال الثانى) إنسان مر على « شبه جزيرة » مأهولة وعامرة بالقصور والبساتين وعوامل الحياة العمرانية وفيما هو يريد الدخول اليها من الجهة المتصلة بالبر اذا بأناس قبضوا عليه واحتفوا به واحتفلوا فى موكب عظيم الى أن أوصلوه الى مركز الحكم وسلموه زمام السلطنة عليهم اذ كان من عادتهم ان لا يولوا عليهم الا أجنبياً عنهم بحيث لا يمكث فى الحكم أكثر من عام وفى نهايته يخرجونه من سلطنته الى جزيرة غامرة خربة قاحلة جرداء فيتركونه فيها محروماً من وسائل العيش حتى

يموت وهكذا شأنهم كل عام ، ولما كان ذلك الانسان من العقلاء أخذ يفكر فى أمره الفجائى بسلطنة ما كان يحلم بها أو يتمناها ولأجل الوقوف على السر فى ذلك قد اصطفى رجلا من خيرة أهل تلك البحيث جزيرة واتخذه صديقاً ووقف منه على جلية الامر وحقيقة الحال وحين عرف العاقبة اهتم لها واشتغل بتعمير تلك الجزيرة الجرداء القاحلة سراً بمعونة ذلك الرجل فما حال الحول وارسلوه اليها الا ووجدها جنة من خيرة الجنان فعاش فيها سعيداً . ومغزاه أن الانسان لابد من أن يصير يوماً ما رب عائلة (أشار اليها حضرة الرسول الاعظم صلوات الله وسلامه عليه بقوله : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) وهى المشار اليها بتلك السلطنة التى هى فى « البحيث جزيرة » المكنى عنها بالدنيا فيقضى عمراً محدوداً هو المشار اليه بالعام ، فاذا كان الانسان عاقلا فيفكر فيما يكون بعد نهاية أجله ومفارقته الأهل والوطن مرغما ليعود الى الدار الآخرة المعبر عنها والموما اليها بالجزيرة الجرداء القاحلة فيعمرها بالعمل الصالح الذى ورّى عنه بذلك الرجل الذى اصطفاه سراً أى بحيث يسلم عمله من الرياء فمتى حان الحين وفارق الدنيا وجد ما عمله من خير حاضراً فى تلك الدار الآخرة فيكون من السعداء

فالمثال الأول مثال لأهل الشقاء الذين تلهيهم الدنيا الفانية عن النظر والتفكر فى أمر الدار الآخرة الباقية فينالون بها سوء الجزاء والمثال الثانى مثال لأهل السعادة الذين يفكرون دائما فيما بعد الموت

فيعمرون الآخرة بما يقدمونه من الأعمال الصالحة فينالون حسن الجزاء الأوفى

ان الكتب فى كل لغة وعند كل قوم مشحونة بالتحذير من الاغترار بالحياة لأن أجلها قصير وعاقبتها الموت ومملوءة بالحث على العمل للآخرة بأساليب شتى وبروح مؤثرة ، وقد تساوى فى ذلك المعتنقون للاديان ذوات الكتب السماوية وغيرهم من ذوى الاديان الاخرى ولكن قلّ من يتعظ ويتبصر

فأما الذين يهملون أمر العمل للآخرة دائماً وبدون مبالاة وبلا توبة ولا إنابة فلابد من أن يكونوا إما من الذين لا يعتقدون باليوم الآخر ولا يوقنون به . واما من الذين يعتقدونه ويوقنون به ولكنهم على شك مما ورد فى الاديان التى اعتنقوها من كل مالا تسعه عقولهم

أما الاولون فهم ممن لا يعترفون بخلود النفس ويظنون أن الانسان كآلة البخار اذا انقطع عنها تأثيره وقفت واذا اختل نظامها فسدت ويبنون على نكرانهم وجود الروح مسألة عدم الاقرار بوجود الصانع القديم خالق الموجودات سبحانه وتعالى أعاذنا الله منهم ومما يعتقدون

وأما الآخرون فهم ممن يجزمون بخلود النفس ولكنهم ينكرون ما ورد فى الاديان من أمر الثواب والعقاب والجنة والنار وحساب القبر وغير ذلك

من أجل هذا كله سنثبت بعد هذا البيان مسألة وجود الروح

وأنها خالدة ثم نخاطب فريق المتعلمين كلاً بما عنده من المعلومات فنثبت لهم جميعاً منها مسألة وجود الصانع القديم جل شأنه وان كان سبحانه وتعالى غنياً عن التعريف والبيان والبرهان ثم نأتي بعد ذلك بكل ما يجب على المكلف من جهة التوحيد وأقسام العبادات واثبات كل ما ورد في الدين من حيث الجنة والنار والحساب وسؤال الملكين الى آخر ما هو من المسائل النقلية التي هي عند كثيرين من الناس مثار للشك وسوء الاعتقاد ونستوفي ذلك بما يسهل تناوله على الناظر في هذا الكتاب وخصوصاً الأجانب عن ديننا الاسلامي الشريف عسى أن يوفق الله فتحصل الهداية لبعض الاخوان في النوعية أو الدين والله سبحانه وتعالى المعين والهادي الى الصراط المستقيم

﴿ الروح موجودة وخالدة ﴾

« اجتهد أن تعرف من أين جئت وكيف جئت لتعرف الى أين تذهب وكيف تذهب »

ان أحكم قول قاله المرسلون أو الانبياء أو الاولياء الاصفياء أو الفلاسفة الحكماء أو العلماء الاذكياء قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

(كفى بالموت واعظا)

ان لفظ « الحياة » اسم للحال التي يكون فيها الجسم حائزاً لمزايا الحركة والتفكر والارادة والاحساس والنطق والعمل كما ان لفظ الموت اسم للحال التي يتجرد فيها الجسم من حال الحياة الى حال يكون معها

الجسم خامداً جامداً ساكناً لا يحس ولا يتألم ، فالموت ضد الحياة ، وكل حي الى فناء جسماني ولكن مدة الحياة اذا طالت فلا تمتد الا الى نحو المائة سنة على ندرة وقلة وشذوذ والا فتوسط أعمار الناس من الاربعين الى الخمسين غالباً ولو أن بعض الناس يموت بعد زمن ميلاده بأمد قصير ، وكأن الخالق سبحانه وتعالى اراد تقصير الآجال لحكمة جليلة اذ لو طالت اعمار الاشقياء من الناس فاستنفدت المئات من السنين لأصابوا بظلمهم وشرورهم العمران البشري بما يجعل مصاعب الحياة ومصائبها أضعافاً مضاعفة لا تطاق فالحمد لله تعالى على قصر الآجال والحمد لله تعالى على ان الموت كان خاتمة حياة كثيرين كأمثال نيرون الظالم وفرعون العاتي الذي ادعى الالوهية

إن الانسان مع كونه قصير الأجل نراه طويل الأمل ولا يزال تصدر عن أفراده أعمال يتألم منها جسم الانسانية فلا يفكر وقتاً ما في أنه سيموت فيعمل لما بعد الموت ، ولو انتظ لكان خيراً له وما ذلك الا لانكاره أمر وجود الروح وانها خالدة ولأجل اثبات ذلك للمنكرين نقول :

لقد اشترك عموم أهل الأديان ذوات الكتب السماوية في اعتقاد وجود أرواح غير منظورة من الملائكة والجن والشياطين وشاركهم في هذا الاعتقاد أيضاً أرباب الأديان الأخرى كالزرادوشتيين والبوذيين والبرهمانيين والكونفوشيوشيين وغيرهم من فلاسفة الشرق والغرب

فقالوا بوجود عالم غير منظور ولكننا نريد أن نحاول من وجهة منطقية سبيلها نور العقل اثبات الروح الانساني وكونها خالدة بعد مفارقتها للجسم تاركين محاولة اثبات ذلك العالم الغير المنظور الآن حتى نصل الى محله من الكتاب بحول الله تعالى فاننا نقصد على الأكثر قوماً ينكرون الروح وهي الأمر المحسوس فكيف نبدؤهم بغير المحسوس فنقول :

ان جسم الانسان الحي يشتمل على شيئين لايجرأ على انكار أحدهما منكر هما مادة الجسم والقوة العاملة في احساسه وشعوره ، فانه من المعلوم انك اذا تصورت شيئين فان تصورك أحدهما يباين تصورك للآخر خصوصاً متى كانا متغايرين . فمثلا اذا تصورت دائرة ومثلثاً فانك تحكم بان تصورك للدائرة غير تصورك للمثلث كما ان تصورك للنقطة خلاف تصورك للخط وان تصورك للشمس خلاف تصورك للأرض وبناء عليه فتصورك للجسم وهو ذو أبعاد ثلاثة هي الطول والعرض والسمك يخالف ويغاير تصورك للقوة التي تفكر وتحس وتريد وتنطق فالجسم له امتداد يحده ويميزه عن القوة المفكرة التي ليس لها امتداد ولا يمكن تحديدها في الحس لأن ما تصورناه من التفكر لا يشتمل على ما تصورناه من الامتداد فيثبت من هذا أن جسم الانسان الحي مركب من شيئين هما مادة الجسم والقوة العاملة في احساسه وشعوره وهي التي نعبر عنها بالروح

نعم انه من الصعب وليس من السهل معرفة كيفية ارتباط ما هو مادة بما ليس بمادة لأن ما ليس بمادة لا يدرك بالحواس فيكون من الصعب دركه الا بشيء ليس بمادة وهو نور العقل الذى هو من أسرار تلك القوة المرتبطة بالمادة ، وحينئذ فليس من سلامة التصور أن يكون عجزنا عن درك كيفية ذلك الارتباط باعثاً لنا على انكار تلك القوة التي هى جوهر مجرد مفكر خال من الامتداد خصوصاً لأننا بها نحس ونحس بأننا نحس ولنا جسم وان هذا الجسم متى فارقته تلك القوة لا يحس ولا يفكر ولا يتألم ويخرج عن كونه حياً حالة كونه لم ينقص منه شيء من مادته ، وليس ما تقدم فحسب بل ان الانسان فى حال النوم التى هى بلا شك حال بين الحياة والموت فيها لا يسمع ولا يبصر ولا يشم ولا يحس يرى وهو مستغرق فى نومه أموراً من أمور الحياة جميعها منها ما هو من العمل البدنى كالأكل والشرب ولقاء الأحباب سواء كانوا من الاموات أو من الاحياء وغير البدني كالمباحثات والمجادلات فاذا استيقظ ذكر كل ما كان رأى وعجب منه بل ربما يكون رأى ما يفزعه فيحمد الله تعالى وقت تيقظه على ان كل ذلك كان حلماً وؤرياء فاذا قال فى نومه شعراً تيقظ وهو يحفظه بعضه أو كله وربما رأى من أموره المستقبلة ما يتم وقوعه مطابقاً لما رأى ، ومن ذلك انه ثبت فى كتب التاريخ أن السلطان مراد الاول من سلاطين آل عثمان كان يعمل بما يرى فى النوم فينجح وكجان دارك الفرنساوية لما عملت بما رأت وقادت الجيش الفرنسوى فانتصرت على

الانجليز وهى مسألة مشهورة، وكثيرون يقومون وهم فى حال نومهم ويعملون أعمالا كأعمالهم حال اليقظة بلا فارق سوى أنهم نائمون فاذا استيقظ النائم من أمثال هؤلاء وحدثه غيره بما وقع منه فانه يستنكره أى يستنكر اتيانه الحركة والعمل وهو نائم ولكنه يذكر أنه رأى الرؤيا، والاطباء لا يعرفون سر هذه المسألة ولا يقفون على كيفية التوقي منها وكثيراً ما يأتى الانسان فى نومه من الأعمال وينتبه وفى ملابسه أو جسمه أثر من تلك الأعمال، اذا كان هذا هكذا فهل هو من فعل ما هو مادة أعنى الجسم أو هو فعل ماليس بمادة أعني القوة المفكرة المجردة ؟ لاشك فى أنه من فعل القوة لا المادة

ولما كانت المحسوسات متنوعة من مرئيات ومسموعات وملموسات ومشمومات ومذوقات كان تركيب الجسم بحيث وضع فيه لكل نوع من ذلك آلة تختلف عن سواها شكلا وتركيباً وفعلا ألا وهى ما يسمى بالحواس الخمس التى هى البصر والسمع واللمس والشم والذوق والكل حقيقة واحدة هى إدراك النفس بمنافذ مخصوصة متنوعة، ومن عجيب القدرة القديمة التى صنعت ذلك أن جعلت تلك الحواس مختلفة التركيب والشكل فى أنواع الحيوان على اختلاف أجناسها وبحيث انها زائدة أو ناقصة فى نوع عن نظيرها فى نوع آخر وضعيفة أو قوية فى نوع عما هى عند غيره، فللحمام الزاجل مثلا حاسة سادسة بها يعرف مكانه فيعود اليه مهما كان بعيداً ومهما أخفوه عن الطريق الذى سلكه حين الانتقال،

وكقوة حاسة الشم في الكلب الى غير ذلك ، فان قلنا ان الحاسة السادسة في الحمام وقوة حاسة الشم في الكلب نتجتا عن شكل التركيب في جسمي الحمام والكلب فليس جسم أحدهما أكبر من جسم الفيل ولا أعجب منه ولا أكمل حتى يكون هذا عن خصوصية في الجسم اذ لو كان الأمر كذلك لكان الفيل أوفى نصيباً من كل مزايا وأسرار الخلق ، فثبت مما مر أن الروح شيء آخر غير الجسم وانها هي ذات السلطان عليه ، وان الذي خالف بين قوى الارواح مكونها

بقي بعد هذا كله ان نتساءل عن هذين الشيئين القوة اى الروح والمادة اى الجسم هل تتلاشيان اذا تفارقتا ؟ اننا اذا سمعنا علماء الطبيعة يقررون كل آن أن المادة لا تنعدم ولا تتجزأ أفليس من باب الاولى ان القوة التي لها السلطان على المادة لا تنعدم فتكون خالدة ؟ واذا كانت تحصل حوادث كثيرة من ارواح الاموات وننكرها ولا نصدق من يخبرونا بها فكيف بمن يرى احد امواته في الرؤيا ويخبره عن امر مجهول فيجد الرؤيا صادقة بعد ما يستيقظ ويقف على حقيقة ما رأى كما اخبرته تلك الروح ، لا بد من الميل الى تصديق امر وجود تلك الروح خالدة

ومن لطائف المرحوم راغب باشا في سفينته المشهورة ما ملخصه لو سألنا صحيفة من صحف اى كتاب من كتب العلم بقولنا : قد كنت بيضاء نقية فمن ملأ وجهك بتلك النقوش ؟ لاجابت ان هذا من فعل المداد فسله ، ولو سألناه لاجاب : سل القلم الذي اجلاني عن وطني

(الدواة) ولو سألنا القلم لقال سل الانامل التى قبضت علىّ وحركتنى ففعلت ما فعلت : ومتى سألنا الانامل فتقول سل القوة التى حركتنى وهنا نقف عند النهاية من عالم المادة الى البداية من عالم القوة ، فاذا فرضنا اننا سألنا الروح لأجابت سل من أوجدنى وألهمني بما نقش فى صحائف الكتاب من العلوم فهو خالق الموجود من المعدوم لا اله سواه

وكيف ينكر أمر الروح منكر فى الوقت الذي قامت فيه الدنيا على ساق فى كل ممالك الأرض لاثبات أمر الروح ورواية العجائب عنها ، وكيف ينكر أيضاً حين يرى بعينيه فعل العجائب من الروح بالتنويم المغناطيسى الذى أضحت مسائله كالبديهيات لا تحتاج الى اثبات فيجب على كل انسان عاقل دوام الاجتهاد لأجل أن يعرف من أين جاء وكيف جاء ليعرف الى أين يعود وكيف يعود

الباب الاول

علوم مجهول أو مجهول معلوم

(لاثبات وجود الصانع خالق الكائنات سبحانه وتعالى بطرق مختلفة)

اعلم يا أخى أيدنى الله واياك بروح منه انك اما أن تكون فلاحاً تفلح الارض وتحرثها لتستنبت الزروع والثمار منها بطريق الفلاحة التى عرفت أساليبها وفنونها المتنوعة عن آبائك ، واما أن تكون صانعاً تعمل بيديك أنواعاً من الصناعات التي يحتاجها الناس ، وأما أن تكون تاجراً

تتجر فى شيء دون شيء أو فى شتّى أنواع التجارات فى بلد واحد أو بين مختلف البلاد، وإما أن تكون رياضياً، وإما ان تكون ميكانيكياً، وإما أن تكون طبيعياً، واما أن تكون كيميائياً، واما أن تكون فلكياً، واما أن تكون طبيباً، واما أن تكون عاملاً اداريّاً ممن يتعاطون الحكم على الناس، واما ان تكون من غير هؤلاء، فمهما تكن اقل لك واطلب اليك ان تزن قولى بميزان العقل السليم والفكر الصحيح لأصل بك ومعك الى ما ارجوه لى ولك من السعادة الابدية، فالأجل مهما طال قصير وكفى بالموت واعظاً لمن يعقل ويتبصر

فان كنت ايها المطلع على كتابى هذا

﴿ فلاحا ﴾

فلا يسعك الا الاعتراف معى بأن الأصل الاول فى فلاحتك ان تختار اجود أصناف البذور المأخوذة مما جادت به عليك النباتات المتنوعة التى انتجت لك تلك البذور، او ان تنتقى اجود الاعواد المأخوذة بعد فصلها من النباتات والاشجار بعد عامك بالاوقات التى يصلح فيها دفن تلك البذور او غرس تلك الاعواد للاستنبات، ولا بد لك من ان تعترف بأن ليس لك من الأمر فى فلاحتك شيء سوى حرث الارض وتهيئتها لذلك وتمهدها بالسقى بعد ذلك فى مواقيت معينة. فأما الارض فليست لك بل هى املك التى نشأت منها ودرجت عليها واما الماء فكذلك ليس لك ايضاً وهو من امطار السماء وينابيع الارض

وبه ومنه حياتك وانت في كل ذلك خادم بسيط لا تدرى ان كانت السماء ستجود عليك بالامطار القليلة ام الكثيرة ؛ دون الكفاية أو فوقها ؛ وان كنت مما لا يحتاجون الى الامطار فلا تدرى من اين تأتى اليك مياه الينابيع ولا كيف يستمر جريانها وجريان الانهار ولا كيف لا تنتهى مع دوام الأخذ منها والاسراف فيها ، وتجهل ايضاً امر الانتاج فلا تدرى هل تسلم زراعتك من الحوادث الجوية والآفات السماوية والحشرات الارضية ، بل توقن أن امرها معلق بقوة عالية فوق قوتك . فأناشدك الحق اذا كانت حبة القمح تدفن فى التراب فتسوق فتنبت فتبقى بالارض نصف عام فتنتج بعد ذلك سنبلة بها مثلها أضعافاً مضاعفة منذ بدء الخليقة الى الآن ويستمر ذلك حتى فناء العالم فلا شك ان تعترف معى ان الذى وجد فى السبق اولا حبة القمح أم شجيرتها التي انتجت السنبلة . وبفرض وجود هذه او تلك قبلا فهل يعقل انها اوجدت نفسها ام اوجدها موجد وهل لهذه او تلك سر الانبات ام للارض وحدها ام للماء وحده ام لهؤلاء جميعاً ، وما نقوله عن حبة القمح نقوله عن سائر الحبوب . واناشدك الحق أيضاً اذا كنت تقطع عود قصب السكر انبوباً انبوباً ثم تغرس كل انبوب فى التراب على حدته ، او اذا كنت تغرسه جملة دون تقسيمه الى اجزاء فتجد ان كل انبوب بعد سنة يكون عوداً كاملاً كأصله المأخوذ منه وان العود ينبت جملة اعواد ولو استبقى حتى يبلغ غايته وتؤخذ بذوره اذ ذاك وبرع كلها لكان ينتج اضعافاً مضاعفة

ايضاً لان كل نبات مهما كان فأصله البذور كما يعلم ذلك علماء الزراعة . وهكذا القول فى كل نبات بل فى كل كائن يأتى بطريق التوالد فهو يلفت نظرنا الى كائن اوجده فهو لا يوجد نفسه ، فاذا ادهيت الفلسفة وعللت فلا بد من ان ينتهى تعليلك الى سبب مجهول لك تحس عند خطوره بفكرك بالعجز والخضوع . وانا شدك الحق كذلك ما السر الفعال فى تنوع الزروع والثمار شكلا ولونا وطعما ورائحة ونفعا وضرا وخاصية حالة أن الماء نوع واحد والتراب نوع واحد فى سائر بقاع الارض

أنظر الى البذور فى شكلها وما تؤول اليه بعد الزرع تجد حبة القمح والبرسيم والفول والعدس والحلبة تنمو الى حد معين وتثمر مرة واحدة فى كل مرة متى زرعت وتجد بزرة التوت والتفاح والكمثري وغيرها تنمو نموا عظيما وتبقى الى مدى طويل وهي تثمر فى كل عام حالة ان الغذاء للجميع من الماء والتراب واحد ، أضف الى ذلك ان من الاشجار العالية ما يثمر ثمرا صغيرا كل سنة كالجميز مثلا والتوت والتمر وأن من النباتات التى لا تثمر الا مرة وتموت ما يكون ثمره عظيما كالبطيخ وكالقثاء وكالقرع الاصفر واللوف وأمثالها ، وأعجب من هذا أن من النبات ما ينمو فى الارض فيسقى بالماء ومنها ما ينمو في الماء ومنها ما ينمو فى الهواء[1]

لابد ان تقول ان السر الفعال فى ذلك لسبب مجهول لنا ، وانا

(١) انظر كتب النبات

مهما عللنا فلا يصل بنا التعليل الا الى مايعجزنا ويجعلنا على الاقل أذلاء خاضعين لذلك السبب المجهول خصوصا متى عرفنا بالاستقراء ان انواع النبات لاتقع تحت حصر ولايزال الانسان يجهل منافع وخواص الكثير منها، وان منها نوعا يشارك الانسان فى الاحساس ونوعا آخر يشاركه فى اكل اللحوم كالنبات الموجود بجهات امريكا إذ يمتص دم كل حيوان، وكالنبات المسمى بمصيدة الزهرة فهو يصيد الذباب خاصة

أضف الى مامر ان لكل نوع من الزروع إبان فما يصلح زرعه فى فصل الصيف لا يصح ولا يثمر اذا زرع فى فصل الشتاء ولا ينتج اذا حاول زارع زراعته فى فصل آخر فلكل فصل اجناس من الزروع لا يتم نضجها واستثمارها فى سواه

ومن حاول استنبات أى نبات فى غير أوانه ضاع عليه تعبه فى محاولة ذلك سدى ، ولولا اختلاف الفصول فى كل جهة من جهات كرتنا الارضية بسبب الوضع الآلهى للافلاك واختلاف مواقيت بداياتها ونهاياتها لكان لكل بلد فصل تحرم منه الجهات الأخرى وصنوف خاصة بها مدى الحياة تنفرد بها دون سواها ولم يكن ذلك على ندرة أى ان بلاداً تكون حارة دائما وبلاداً تكون باردة دائما وتكون هذه خاصة بمزروعات الشتاء وتلك خاصة بمزروعات الصيف ، ولو كان ذلك كذلك لاستأثرت بلاد بزراعة القمح الذى هو غذاء العالم وأنواع مثله صالحة للتغذية وفى هذا مافيه من الفساد اذ يكون محصول الجهة

التى يصلح فيها غير كاف لعموم سكان الكرة الارضية ويختل نظام الحياة ولكن لم يكن ذلك فوضح ان وضع كرتنا الارضية من الشمس وضع عن حكمة مكونها لتكون الزراعة صالحة فى كل جهة ومتوفرة بحيث تفى بحاجة الناس وبعض أنواع الحيوان ، وليكون كل صنف من الزروع مما يصلح فى فصل دون فصل لابد أن يكون نباته موجوداً فى كل أطراف الارض طول أيام السنة اذ انه ان لم يكن موجوداً فى جهة لعدم حلول أوانه بها فلا بد ان يكون موجوداً في جهة أخرى ، وهذه الحكمة الجليلة تدل دلالة ليس بعدها دلالة على ان هذا القصد لا يصدر الا عن قوة وقدرة سبب مجهول لنا من حيث كنهه وحقيقته لكنه معلوم من حيث جليل أعماله وعجائب مصنوعاته

أضف الى ما مر أيضاً ان العالم الانسانى يشتغل بالزراعة فى أجيال يفوتها العد والاحصاء ولكنه مازال يجاهد ويجد ويكد فى تنويع الزروع ويستكشف ويستنبط ويستزيد ليصل الى درجة الكمال يوماما وما هو بواصل لان زمام ذلك السبب المجهول ليس بيد الانسان بل بالعكس ان زمام كل شىء بيد ذلك السبب المجهول الذى لم ينقطع خلقه وابداعه لحظة أو بعض لحظة فهو يرينا من عجائب ابداعه كل آن شيئاً جديداً وما لابداعه من نهاية ، ولو أدرك الانسان بنظره الذكورة والانوثة فى النبات وطلبه اللقاح وعلم انها تشعر وتحس ككثير من النباتات التى فيها حاسة الاحساس أظهر ، وكالنبات الذى يتغذى باللحوم

لفهم وتحقق انها عالم مثل عالمنا الانسانى الحيوانى يحصل بينها العشق والتزاوج والتوالد دون ان ندرك أسرار ذلك ولكن لا يعقلها الا العالمون الذين يوقنون بالواحد الأحد الذى له وحده أن يخلق مايشاء فلا يجحده الا ذاهل مجنون

ان الانسان مع هذا العجز الظاهر يدعى القدرة ويدعى انه مدرك لأسرار الكائنات دون سواه فيظن ان الحيوانات لا تشاركه فى المعرفة، ولو فطن الفلاح لعرف ان النملة فى تناهى جسمها فى الصغر وفى الحول والقوة تصنع لنفسها بيتاً فى جوف الأرض وتظل تجمع الحبوب وتخزنها به لفصل الشتاء حيث انها لصغر جسمها وخفته تخشى الغرق فى مياه الامطار واصابتها بضرر الا وحال فتبقى فى بيتها الشتاء كله تدخله فى أول يوم منه ولا تخرج الا فى آخر يوم من أيامه وتعرف ذلك دون حاجة الى تقاويم الفلكيين وتعداد الايام والشهور وهى كامنة فيه ، ثم انها لعلمها ان حبة القمح متى دفنت فى الارض ونالها ماء المطر أو غيره من المياه تنبت ولم تعد تصلح لغذائها فتراها لهذا السبب تكسر حبوب القمح كل حبة الى قسمين أو ثلاثة حتى لا تنبت وتظل سليمة لغذائها، وهذا يعرفنا قطعاً انها تدرى بما يفيدها من جهة الفلاحة ، فيا ترى من علمها ذلك أليس هو ذلك السبب المجهول الذى كلما عللنا أسباب وجود شىء ذهب التعليل وانتهى بنا اليه ، وفوق ذلك فهى قانعة لا تعرف الطمع فهى لا تجمع الا مايكفيها لمدة الشتاء هى وجماعتها ، وفى غير الشتاء

تأكل رزقها اليومي دون التفات الى الغد فلا تحاكي الانسان في جمعه وادّخاره وحرصه واستئثاره بما يجمع دون اخوانه البائسين كما انها لا تصنع بيتها فيما يزيد عن حاجتها من المساحة بخلاف الانسان الذي يكفيه حيز قليل من الارض فيشغل مساحة كبيرة بالقصور والبساتين الفسيحة بما يزيد عن حاجته كثيراً جداً حالة ان كثيرين من اخوانه بني الانسان في اشد حالات الاحتياج الى مأوى فيرامم ولا يرحمهم — ولا تظن أيها الفلاح ان النملة وحدها تعرف ذلك بل أن الثور الذي تستخدمه في مزرعتك للحرث وجر الماء يعرف ذلك فانه يرى شتى النبات تحت أرجله ولا يأكل الا الصالح الأصلح لغذائه ، وان الذئب يميز بين أعواد قصب السكر وبين القصب المعروف بالغاب فيفد على مزرعتك في غفلتك فيمتص منه ماشاء لعلمه انه حلو ونافع ولذيذ ولا يقرب من قصب الغاب الا ليتخذه مخبأ يختفي به عن عينيك ، وان الحيوان المعروف بالورنة كيف انها اذا حاربت الثعبان قتلته بطريقتها المعروفة ، تذهب فتأكل من نبات معروف لها تعلم انه شاف من سم الثعبان وان النحل يذهب الى البساتين فيجني من نور الزهور أطيبها ومن زهر الاثمار أروحها وازكاها ولا يقترب من ثمر مر أو حامض أو سام أو ذي رائحة كريهة على العكس من كثير من الناس الذين يأكلون مايضرهم ولا ينفعهم ، فهلا تعرف من هذا كله أن ذلك السبب المجهول هو قادر وصانع وحكيم مهما دعاه المنكرون باسم من الاسماء او نعت من النعوت ، انه في ذلك مجنون

معتوه ليس عنده ذرة واحدة من سلامة التصور مهما أرانا بمعلوماته انه عالم وفيلسوف ، فسبحان الذى أنبت كل شيء نباتاً حسناً وأخرج من الماء كل شيء حي واودع فيه وفى التراب سر الانبات لا اله سواه

وان كنت أيها المطلع على كتابى هذا

صانعا

بأن كنت نجاراً أو حداداً أو حائكاً أو بنا أو أى صانع كنت فاعلم يا أخى ان كل صانع محتاج الى ثلاثة أمور هى : علم تام بصناعته وآلة أو آلات يصنع بها ومواد مستوفاة يأخذ حاجته منها لتكوين مصنوعاته ، فاما علمك بالصناعة فانك وسائر الصناع المختلفى الصناعات مفتقرون الى قتل الايام والاشهر والاعوام للدرس والتمرين على أيدى أساتذة مهرة لاستيفاء مسائل تلك الصناعات التى هى متولدة بداعى الحاجة اليها منذ وجود الانسان الأول على هذه الكرة الارضية فى مدى أجيال بعيدة ، والناس جميعاً منذ ذلك الانسان الأول الى الآن مشتركون في جمع اشتات أسرارها ومعاناة بيان اشكال اوضاعها وترتيباتها بطريق التعاون والتدرج فى الترقي جيلا فجيلا وما زالت ولن تزال قابلة للترقى بدليل مايظهر آنا بعد آن فى الممالك والبلدان

وأما الآلة أو الآلات والمواد جميعاً فهى بلا ريب مما اخرجته بطن الارض سواء أكانت من النباتات أو المعادن وسائر الجمادات أو

الحيوانات ، ولكن ماوصل اليك منها لم يصل الى يدك الا بعد ان اشتغل فى استخراجه من بطن الأرض وكائناتها وتحضيره بالصورة التى هو عليها قبل أن تصنعه مئات بل ألوف بل ملايين من بني نوعك ، ومتى فكرت ولو قليلا لتعرف من الذى أودع بطن هذه الارض سر تكوين سائر المواد المختلفة سواء أكانت حيوانية أو نباتية أو جمادية من كل ماالحتجت اليه فى صناعتك وفكرت ايضاً فى كيف انها اختلفت شكلا ولونا وصلابة ونفعاً لهداك التفكير الى انها راجعة كلها الى سبب واحد مجهول من حيث كنهه وحقيقته معلوم باعماله وعجائب مصنوعاته ولكن علمه بالصناعة منه والآلات التي صنع بها منه والمواد التي استخدمها فى مصنوعاته منه ولكن لاندرى كيف علم أم كيف صنع أم كيف أوجد ماأوجد فلا يعلم بحقيقة كنهه وحقائق اعماله الا هو ، فانك أيها الصانع وانت كائن صغير من جملة مصنوعاته لايمكنك منفرداً ولا يتأتى لك مجتمعاً بجيوش من بنى نوعك ان تهتدى الى معرفة كنهه ، وكيف لا وانت لايمكنك ان تعرف حقيقة صنف من صنوف شتى من مصنوعاته ، وعدا ذلك فأنت صانع حى بعد امد قصير تموت قهراً بدون اختيارك واما هو فصانع حى أبدى أى دائم الوجود بدليل دعومة مصنوعاته فان الذى ينعدم منها يتجدد غيره ويخلفه بقدرة ذلك الصانع وابتداعه

ولو فكرت من جهة أخرى ولو قليلا لعلمت انك فى الحصول على

احتياجاتك لصناعتك أفقر كثيراً من أحقر حيوان فى نظرك اذ أقل نظر منك الى النمل والنحل فى بناء بيوتها يريك انها لم تحتج اليك لا فى الاخذ عنك ولا عن غيرك علماً وعملا بل علمها معها لكن لا عن معلم آخر غير مكونها ، وآلاتها فى جسمها فلم تحتج الا الى المواد وهى شريكتك فى الأخذ مما أخرجت بطن الارض فلابد من أن السبب المجهول الذى يعلل به المنكرون وجود الاشياء هو الذى أودع فيها ذلك فانها فى افتقارها هى الى بنى نوعها لا تساويك فى افتقارك الى بنى نوعك ولا فى عدد من يعاونونك ، على العكس منك فأنت فقير الى المعاونة بغيرك على درجة كبرى حتى فى رغيف من الخبز الذى تأكله اذ انه لم يصل اليك الا بعد ان يشتغل فى صنعه الالوف بين زارع وحاصد وطاحن وعاجن وخابز مضافا الى ذلك من استخرجوا وجهزوا وصنعوا آلات تلك الاعمال كلها التى جعلت رغيف الخبز حاضرا وصالحا لغذائك ، فكيف أن ذلك السبب المجهول الذى يعلل به الموجودات المنكرون جعل تلك الكائنات الصغيرة الحقيرة فى نظرك قليلة الحول والقوة أقدر فى احتياجاتها منك الى احتياجاتك

ولا يحمل بنا ان نقف بك عند هذا الحد من البيان بل يجب ان نلفتك بعد وضوح كونك افقر الى التعاون فى احتياجاتك من النحل والنمل الى انك اقل قوة واضعف قدرة من كثير من الحيوانات كالاسد والفيل وغيرهما لولا بنانك فهو الذى امتزت به على سائر

انواعها فان بنانك هو الوسيلة الوحيدة لاستخراج ما صوّره فكرك وتخيلته مخيلتك من حيز العدم الى ميدان الظهور بأعمالك اليدوية الزراعية منها والصناعية الى سائر اعمالك ، والا فما يبدو من اعمال الحيوانات والحشرات العجيبة التي يعجب منها الانسان كالنحل ودودة الحرير والنمل والعناكب وغيرها مما افرد له بعض المؤلفين كتبا خاصة ، كل ذلك يدلنا دلالة واضحة على انها تعقل وتفكر وتعمل لمصالحها وتدرأ المضار عنها وان انكرها الانسان وانه لظلوم . فذلك السر المجهول الذي يعلل به الكائنات المنكرون هو الذي اوجد لضعفك قوة من اصغر جزيء في جسمك الا هو بنانك فصار معلوما باعماله العجيبة التي تجلت وظهرت بك وبسائر الكائنات فسبحانه من صانع قادر حكيم مبدع لااله غيره تعالى وتقدس ، وتعس من جحده وانكره

وان كنت ايها المطلع على كتابي هذا

تاجرا

تتاجر في شيء دون شيء او في شتى انواع التجارات فمن المعلوم ان ما في حوزتك من السلع ليس من الحاجيات التي هي متساوية من حيث قيمتها او شكلها او نوعها او فائدتها ولا هي من النبات وحده او الحيوان وحده او الجماد وحده ولا هي من محاصيل بلد واحد ولا هي من صنع اهل بلد واحد بل ان كلما هو تحت يديك من انواع التجارات

من نتائج الارض كلها وصنع جميع الناس الذين انت فرد منهم ، وان سائر صنوفها مهما اختلف شكلا وقيمة ونفعا وحجما هو خارج من بطن الارض ، وان نظرة واحدة من كل سليم العقل والادراك اليها تكفي لان يعلم من تلك النظرة ان كل ما وقع عليه نظره هو من نتائج ومتاعب ومجهودات النوع الانساني من يوم ان ظهر الانسان الاول على ظهر الارض بطريق الترقي التدريجي بمضي اجيال لا تقع تحت العد والاحصاء ولا يزال يدأب ويجد للحصول على ما ينقصه من تلك الاحتياجات التي يكون التاجر واسطة انتقالها بين الناس لاجل تبادل الحاجات من يد غنية عنها ليد مفتقرة اليها فلم يصل الى استيفائها ، ولو يملكون امرهم كما يريدون لما وقفوا عند حد من الترقي ولوصلوا الى الراحة على اسرع ما يركبون من كلما امكنهم ، وان نظرة واحدة اخرى لمن يعقل ويفهم ترشده الى ان المزايا موزعة على عموم الاقطار فلم تجتمع كلها في بلد كما انه لم يخل منها بلد ، وهذا انما هو من العلل التي دعت الى التجارة ، وان ما اشترك في وجوده بلدان أو جملة بلدان لابد ان يكون على درجات متفاوتة في الجودة والحسن ، فما العامل الفعال يأتي في ذلك كله من انفراد بلد بمزية لم تكن في أخرى غيرها وتفوق بلد على بلد في صناعة اتحدا في عملها ، أليس هذا دليلا جليا على ان في البلدة التي انفردت بشيء لم يكن في غيرها خاصية ايجاد ذلك الشيء وقد خلت منها تلك وعلى ان البلدة التي انتجت المصنوع الطيب دون البلد

الآخر يدل على تفوق اهل هذا البلد على أهل ذاك البلد مثلا فى القوتين الجسمية والعقلية علما وعملا وتحصيلا واختراعا وتمدينا الخ وعلى ان اتقان مصنوع دون مصنوع من نوعه مما أنتجته الصناعة وتفوق صنف على صنف مما أنتجته الزراعة وسموّ شيء على شيء فى النفع والقيمة من سائر الاشياء كل ذلك لسر غامض فانك مهما علمت المحاصيل باختلاف وضع الأقطار فى المناطق الحارة والباردة والمعتدلة وعلمت اختلاف النوع الانسانى الذى أنتج تلك المحاصيل فى القوة والضعف والعقل والادراك باختلاف المناطق أيضاً فبماذا تعلل نفس هذا الاختلاف فى ذات البلد الواحد الذى يكاد يكون موجوداً فى كل شيء ، لابد أن تعترف بان السر الفعال فى ذلك كله راجع لسبب مجهول لنا قد أوجد العالم على هذا النظام البديع فهو وان كان مجهولا من حيث كنهه وحقيقته معلوم من حيث أعماله وعجائب مصنوعاته

واذا نظرنا نظرة أخرى الى تجار تاجروا فى تجارات متحدة الاصناف والجودة والقيمة وبرؤس أموال متساوية ايضاً وبفرض ان كلا يعمل وحده فى تجارته حراً وانهم غير مشتركين وانهم متساوون فى العلم والقوة والنشاط وحسن الاسلوب في الاخذ والاعطاء أفهل تراهم بعد بضع سنوات على تساو فى الكسب والخسارة أو الهناء والشقاء لاشك انك تقول باستحالة ذلك اذ ان منهم من يسمو ومنهم من ينحط ومنهم من يفتقر فيمسي وليس فى حوزته شيء مما كان يملك فان حوادث

كثيرين من التجار منظورة بالعين وتكاد تكون ملموسة باليد فقد يصيب بعضهم الافلاس فينتحر ويصيب البعض الآخر فيصبر ، أليس ذلك يدلنا على ان الناس غير متساوين فى درجات الهناء والشقاء واليسر والعسر وانهم لا يملكون من أمرهم شيئاً والا بان لم يكن ذلك كذلك فكانت الحال بينهم غير ماترى فما من احد يريد لنفسه أن يكون شقيا تعساً فلو كانوا على درجة واحدة من سائر الوجوه لاختل النظام

واذا نظرنا فى حال من افلس فانتحر ومن افلس فصبر فنجد ان الاول وقعما اصابته الصدمة اسند امره الى نفسه خطأ فرأى من العار ان يراه الناس اليوم على غير ما كان عليه بالامس فينسبون اليه الجهل وسوء التصرف الى غير ذلك من الامور التى يراها الناس عيبا فتضيق فى عينيه الدنيا فينتحر تخلصا مما توهمه من جسامة النكبة واستحالة العلاج ، ونرى الثانى اسند امره حال الصدمة الى امور لم يكن فى طاقته منعها وانه مع ما هو عليه من العلم وحسن التصرف كان جديرا بغير هذا فيشعر بأنه لا بد من مؤثر مجهول يقدم هذا ويؤخر ذاك وان الامور لم تكن عن مصادفات وعندئذ يتغلب على المصاب ويصبر ، فمتى علمنا هذا أليس من افلس فصبر واسند الامر الى مؤثر مجهول من حيث كنهه وحقيقته معلوم بأعماله وعجائب مصنوعاته خير ممن اسند الامر الى نفسه فعاقبها بالانتحار . اننا نرى كثيرين من الناس يتصادمون مع كثير من الاسباب القهرية التى تجعلهم راضخين لسيادة

مخلوق من امثالهم فيظلون مستعبدين امامه وتحت سيطرته مسلوبي الاختيار أليس من باب الاولى والعقل والرشد ان يعتقدوا ان ذلك السبب المجهول ذو قوة عالية فيجب ان يلجأوا اليه من جهة ويأخذوا في اسباب ما ينزل مصابهم معتمدين عليه من الجهة الاخرى ، انه لا شك في ان من يحكم بخلاف هذا يكون عديم التصور والادراك مهما اوتي من علم ، فانه لو لم يكن في اسناد المصابين امورهم اليه الا الراحة لكفى فسبحان الواحد المؤثر الفعال النافع الضار الذي بيده السعادة والشقاء وهو الرزاق ذو القوة المتين لااله سواه .

وان كنت ايها المطلع على كتابي هذا

رياضيا

فاعلم وفقني الله واياك ان مدار فهم العلم الرياضي بأقسامه على الذكاء وسلامة الادراك ودقة التصور فها انا اطلب اليك ان تزن قولي هذا بقواعد وموازين وقوانين العلم الرياضي الصحيحة التي لا تخطئ وارائك انك ستفي بهذا المطلب وبناء عليه فأقول لك :

اولا انه من العلوم في التعاريف الهندسية ان النقطة لا امتداد لها وفي عرفهم ان اية نقطة بأدق قلم على القرطاس تكون ذات امتداد وعلى هذا فالنقطة في عرفهم ليس لها طول ولا عرض فهي وهمية اكثر منها وجودية لانهم يقولون : ان ما لا ينقسم اصل لما ينقسم

فالنقطة التي هذا تعريفها عندهم اذا تحركت على استقامة كونت خطا مستقيما ولهذا فإن تعريفه عندهم : الخط « ماله طول فقط » فعرضه وهمي أيضاً أكثر منه وجودي ، فاذا تحرك الخط كوّن السطح ومن السطوح تتركب الأجسام الهندسية ، وعليه فالأصل في علم الهندسة النقطة من الهندسة المادية الى الهندسة الوصفية

فاذا أردنا معرفة مبدع هذا الكون الذي لا ينكر أحد عظمته ونظامه العجيب لابد أن نذهب في التعليل من أدق كائن من الكائنات الى أعظم كائن فنرى ان كرتنا الأرضية مملوءة بثلاثة عوالم هي : عالم الحيوان والنبات والجماد وكل واحد منها يشتمل على أنواع تحتها أجناس لا تقع تحت الحصر ، وكل جنس يشغلنا البحث عن علة وجود أدق مخلوق منه وما فوقه في الرتبة الى أجل مخلوق من ذلك الجنس سنين ، ثم لو نتبع البحث في تعليل جنس بجنس مما يقع تحت كل نوع لانتهت السنون التي لا تحصى ولا ننتهي من تعليل يشفي الغليل ويقربنا من الحق ، والدليل على ذلك بين أيدينا فكم من آلاف المجلدات الضخمة في عجائب المخلوقات الأرضية ومثلها في العوالم السماوية وكلها ملأى بالآراء المتضاربة أو المتناقضة منذ بدء الخليقة حتى الآن ، فاذا نحن امتدت آجالنا واستقر بنا مباحثهم فلا نهتدي الا الى مثل النقطة الهندسية التي هي وهمية أكثر منها وجودية ولكنا نخرج من استقرائنا الطويل على فرض امكانه بشيء واحد هو ان لهذه الكائنات علة ايجاد بلا شك

وأنها علة واحدة لا متعددة كما ان الأصل في علم الهندسة النقطة .

ومن المعلوم أيضاً في علم الحساب ان الواحد الصحيح أصل العدد وعلة تكوينه وهو يدور مع الأعداد في كل مراتبها مهما تناهت ولكنه اذا انقسم صار كسوراً وخرج عن كونه واحداً صحيحاً هذا من جهة وأما من الجهة الأخرى فهو لا يكوّن الأعداد الا بانضمامه على نفسه فواحد زائد واحد يساوي اثنين، وواحد زائد اثنين يساوي ثلاثة وهلم جرا الى أن نصل الى مرتبة العشرات فالمئات فالألوف فألوف الألوف حتى الفصل الثاني عشر وهو فصل الديشليون الذي هو آخر فصل جعله واضع العلم الحسابي نهاية للعدد وعليه فالأصل في ايجاد الكائنات الأرضية والسماوية علة واحدة غير متعددة وغير منقسمة الى أجزاء وطبعاً غير مركبة كما أن العدد مهما تناهي فأصله الواحد الصحيح الذي اذا انقسم صار كسوراً ويخرج عن كونه واحداً صحيحاً ، وبما أن الواحد هو الأصل في تكوين الأعداد فهو فرد من جنسها لا يكوّن الا الأعداد بخلاف الواحد الذي هو علة هذه الكائنات ماتراه منها ومالا نرى بدليل ان مكوناته ليست من نوع واحد فكيفية تكوينه اياها مجهولة لنا ولا يعرفها الا هو بدليل ان العلم الرياضي يقول : من البديهيات ان الكل اعظم من أجزائه وان الجزء أصغر من الكل ، فمن باب الاولى يكون من البديهيات أيضاً ان الجزء لا يحيط بالكل أي اننا مادمنا كالعدم بالنسبة لهذه العوالم العظيمة

التي أفنت كثيرين منا على أجيال متباعدة جدا فلا يمكننا أن ندرك كنهها وهي مستمرة النظام فضلا عن ادراك كنه موجدها

ثانياً ـ من المعلوم ان كل عدد محصور بين عددين يكون متناهياً من الطرفين أي ان له أولا وله آخرا وان الخط المحصور بين خطين مهما امتد إلى مالا نهاية له يكون متناهياً أيضاً أى ان له بدءا وله نهاية فلا يلزم أن يكون موجد هذه الكائنات كذلك اذ لو كان كذلك لكان متناهياً كمخلوقاته ، واذا كان متناهياً فلا يستمر الايجاد والأعدام ولا يستمر دوام هذا النظام .

ومن المعلوم ان حد علم الحساب أى تعريفه انه علم يبحث فيه عن كيفية اجراء العمليات المختلفة على الأعداد ، وما القصد من معرفه اجراء تلك العمليات المختلفة الا لغرض الوصول الى نتيجة مجهولة لنا نطلب بها الوقوف على حقيقتها والعلم بها فقياسا على هذا لو أردنا أن نعرف « البحث » عن أصل الاكوان للوقوف على علة إيجادها لقلنا : انه علم يبحث فيه عن كيفية اجراء العمليات المختلفة على الكائنات المختلفة المواد وارتباطها بالقوى الفاعلة فيها ، ولكن استحالة اجراء تلك العمليات على تلك العوالم والأجرام المختلفة المواد والتركيب والوضع والشكل والجرم يجعله علما يكسب العالم والمتعلم جهلا تاما بدليل اختلاف العلماء وتضارب آرائهم وأقوالهم وبراهينهم منذ بدء الخليقة الى الآن كما قدمنا آنفاً في مسائل من الكبريات أو الصغريات فكيف بسائر الاجرام

ثالثاً — من المعلوم انه لأجل حل أية معادلة جبرية ذات مجهول واحد أو مجهولين أو ثلاثة مجاهيل يجب ان يكون بها شيء من المعاليم لمريد الحل ليستعين بها لمعرفة المجهول الأول أولا والثانى ثانياً والثالث ثالثاً فلا يصل الى العلم بالمجهول الأخير الا بعد العلم بالمجهولين قبله واحدا فواحداً ، فما هى المعاليم التي لديك أيها الرياضى العظيم لتستخرج بها حقيقة المجهول الواحد أو الواحد المجهول الذى هو الاصل فى ايجاد هذه العوالم التي لا تحصى حالة أنه لا يمكنك ان تتفرد لمعرفة العلوم الكونية جملةً وهى التى اختص بكل واحد منها واحد من الناس ، فمن أنت حتي يتسع عقلك بفرض اتساع أجلك لمعرفة كنه وحقيقة كون واحد من الاكوان من حيث معرفة مشتملاته المتنوعة وحقيقة السر السارى فى جزيء فجزى من أجزائه المتكاثرة أنواعا وأجناساً وعن السر السارى فى جرمه الكلى المشتمل على تلك الأنواع والأجناس التى أنت من أصغر أفرادها فضلا عن باقى الاكوان السابحة فى الفضاء الذى لا نهاية له وفضلا عن البحث عن مبدعها المجهول من حيث كنهه وحقيقته المعلوم بعجائب مصنوعاته وجلائل أعماله

رابعاً — لأجل ان تعلم انك صغير جداً أمام البحث عن أسرار الاكوان وعن حقيقة مبدعها العظيم لا أذهب بك بعيداً أيها المهندس الرياضى العظيم فالنحلة والنملة شريكتاك فى العلم الرياضى واليك البيان

فأما النحلة فانها بمعاونة جماعتها تختار جزءاً من مساحة أى مكان

بحيث تراه انه محل الأمن من الأخطار فتشغله بوضع بيوت تتجاوز المئات عدداً وكلها سداسية الشكل ، ومن المعلوم ان الشكل السداسى يشترط فيه تساوى الزوايا والاضلاع وهو الشكل الوحيد الذى اذا تراصت أمثاله حوله فيقتصد في المساحة ولكونه يناسب حجمها الاسطوانى وهو أقرب الى شكل الدائرة فعلم النحلة بانفرادهذا الشكل بهذه الخاصية واختيارها له وعدم إخلالها بشيء من شرائطه وخلو سائر بيوتها من النقص أو الزيادة لافى الزوايا ولا فى الأضلاع كل ذلك يدلنا على انها تعرف ماتحتاجه من علوم الهندسة والحساب والمساحة طبعاً ، وما دمنا نراها تحرص بعد ماتقدم كل الحرص على تساوى فتحات سائر البيوت بغاية الدقة فوق محافظتها على التماثل الهندسى فى الوضع فهذا يدلنا دلالة أخرى على انها تراعى أمر الحراسة اذ الفتحات لاتضيق عن دخول جسمها كما لاتتسع لدخول الزنابير أعدائها وتراعى مسقط النور فهى لاتضع بيوتها فى مكان مظلم ولا محجوبا عن الشمس وما تركناه مما شاركت فيه الكيميائيين فهو أعجب ، فمن الذى بصّرها هذه التبصرة ؟

وأما النملة فانها بمعاونة جماعتها تضع بيتها بحيث يقيها مصائب الأمطار ومضار الأوحال بوضع يحفظه من الانغمار بالماء ، فان لم تصدق فادرس كيفية وضعها بيتها فتعلم ذلك وتدرى بانها على علم تام بما تحتاجه من الهندسة فهى لاتحتاج الى وضع الميازيب ولا الى أى عمل من أعمال

الانسان ومتاعبه لاتقاء الأمطار بإرشاد المهندسين أمثالك ، فمن يا ترى يبصرها هذه التبصرة

خامساً — من الذى وضع فى العالم الأرضى سر تكوين موجوداته على أشكال مختلفة شاملة للتماثل الهندسى فى كل صغيرة وكبيرة من عوالمه الثلاثة الحيوان والنبات والجماد فضلا عن إبداعها سوى ذلك الواحد المجهول من حيث كنهه وحقيقته المعلوم بأعماله الجليلة وعجائب مصنوعاته والذى هو صانع الكائنات كلها على الاطلاق ، فسبحانه من إله أحصى كل شىء عدّا وقدر فهدى فهد لا إله سواه

وإن كنت أيها المطلع على كتابى هذا عالما

ميكانيكيا

فعلومك وفنونك التى وصلت اليك بعد جهاد ملايين من بنى الانسان حتى بلغت ما بلغت مما هو فى مكنونات صدرك ومطويات كتبك والتى هى لاتزال قابلة للترقى بمتابعة الاجيال المستقبلة ، هذه العلوم والفنون قد أوصلتك الى مركز قدرة هائلة فكان منها ان تصنع آلة بخارية تسير فى البر وأخرى تجرى فى البحر وغيرها تغوص فى الماء وسواها تطير فى الهواء ، ولكن أليست كل آلة من تلك الآلات مركبة بحيث ان كل قطعة منها تحت تأثير قطعة أخرى وهكذا حتى تنتهى الى قطعة رئيسة هى تحت تأثير البخار مباشرة وهو بالنسبة الى

قوة تلك الآلة فى مجموعها كلا شيء سواء أكان ذلك من حيث الكمية أو الوزن أو الشكل أو الضعف خصوصاً اذا استحال الى حاله الأولى ، وهذه القوة البخارية متولدة من غليان الماء الى درجة معينة بواسطة أية حرارة سواء أكانت من الكهرباء أو نار الخشب أو الفحم الحجرى أو الغاز أو حرارة الشمس ، لابد أيها المهندس الميكانيكى الماهر ان تقول: بلى هكذا حال أية آلة بخارية أو غير بخارية كالآلات التى تدار بالهواء أو بقوة تيار الماء وهكذا أصل قوتها ، وهى مهما كان نوعها تعمل العجائب فى ادارة المعامل الصناعية المتنوعة والكثيرة العدد المختلفة الصنع والتركيب من حيث العُدَد ، ولا شك فى ان تقول أيضاً ان معظم عجائب الصناعة هى نتيجة تلك الآلات التى هى تحت تأثير المدد من الانسان مديرها ومدبرها وممدها وصانعها ، فلو انقطع مدده عنها لوقفت أو لو انقطعت عنايته بها لخربت ، فهكذا هكذا الانسان لولا المدد الواصل اليه من صانع كل أجزاء جسمه ومودع السر السارى فيه والذى هو عامل الحياة فيه والذى يعبر عنه كل انسان بلفظة « أنا » والذى هو الاصل الفعال فى امكان ما استطاع من اختراعاته « لولا ذلك » لهلك ، فان قلت ليس من سر عامل فى حياة الانسان وانما هو مستمر الوجود بطريق التناسل وهو كالآلة التى اختل نظامها بفساد بعض أجزائها فهلكت فانظر وتصور ان الآلة مع كل قوتها لا تدرك ولا تحس ولا تريد فهى كلعبة فى يد الانسان المدرك المريد الحساس ليستعين بها على

عمله واننا لو تراجعنا الى الوراء لنصل الى أول رجل وأول امرأة هما أصل العالم الانسانى وقد وجدا من غير طريق التناسل المشاهد، فمن أوجدهما ؟ فان قلت انهما وجدا بلا موجد فقد نسبت اليهما قدرة ايجاد نفسيهما فلِمَ لم يقدرا على استمرار البقاء ليفلتا من يد الفناء القهرى باستمرار المدد الذى يحفظ الآلة من الفساد فتبقى به الحياة مستمرة وان قلت باستحالة وجود أول رجل وأول امرأة بل من طريق التناسل الى مالانهاية له فهو أمر باطل بالبداهة ولا يقول به أحد فلا بدمن ان تعود وتقول انهما وجدا بفعل سبب مجهول لنا ، ومن الضرورى أن مثل هذا التعليل يدخلك فى دائرة المعتقدين بوجود الصانع الذى يعبر عنه المنكرون بالسبب المجهول عناداً وجهلا فهو الذي اذا أراد ان يجعل المدد مستمرا منه للانسان فقد يظل حياً

هذا مايصل اليه البحث عقلا وشعورا ووجدانا واستدلالا إذ أن استمرار وجود هذا العالم بما اشتمل عليه من الانواع وما تحتها من الاجناس باقية سائرة بنظامها البديع وكل منعدم منها يخلفه آخر من جنسه متجدد يدل على وجوده وعلى انه دائم ومستمر على نظام الايجاد والاعدام مع استمرار الوصول للمستمر الوجود حتى يريد فناءه والا فبقاؤها مستحيل متى انقطع مدده عنها كالحال فى أية آلة على اننا نرى الأجرام السيارة فى الفضاء مستمرة النظام ولا نرى مسيّرها ومديرها كما نرى مدير الآلة ولا نعرف مما ذا تركبت كما نعرف أجزاء الآلة وما غاب عنا أكثر ولو

كانت الآلة تعقل وجودك وجودا محسوسا لعقلنا نحن أيضاً وجوده محسوساً فسبحانه من إله احتجب بحجاب العظمة والكبرياء والنور فصار مجهولا من حيث كنهه وحقيقته معلوماً من حيث أعماله وعجائب مصنوعاته . ولو كنت قادراً على ان تخترع ما يحفظ جسمك من الفساد ودوام المدد اليه لفعلت ولكن الحركة والسكون ايجادا واعداماً بيده جل شأنه وسبحانه من إله يقول للشيء كن فيكون

وان كنت أيها الناظر فى كتابى هذا عالما

طبيعيا

فانك لاتجهل ان العلم الذى تخصصت له يبحث عن الظواهر الطبيعية أى عن الطوارىء التى تطرأ على الاجسام فلا تحدث فيها تغييرا وهو علم أفاد العقلاء سليمى الحواس والادراك وسلامة التصور شؤونا كثيرة من شؤون الكون وأسراره التى هتهم الى عظمته وعظمة خالقه سبحانه وتعالى ، فان كنت أيها العالم الطبيعى من غير هؤلاء أى من الذين لايستندون بوجود الصانع ويذهبون فى تعليل الايجاد كل مذهب مما تتخيله عقولهم وتتصوره أفهامهم فأقل لك : ان علماء الطبيعة الذين نظروا الافلاك وسائر الاجرام السماوية سابحة فى كبد السماء وغير مرتكزة على شيء قد عللوا وجودها بان قوتى الجذب والدفع هما العلتان اللتان حفظتاها وجعلتاها محافظات على نظاماتها

ومن المعلوم نظرا وعقلا واستدلالا ان هتين القوتين المقول بانهما

علتا بقاء الافلاك كما نرى اما ان تكونا متساويتين واما ان تكونا مختلفتين فان فرضنا انهما متساويتان بان كان كل كوكب يجذب ويدفع كل كوكب آخر بقدر متساو من الجهتين جذبا ودفعاً فلا بد ان يظل كل كوكب حافظا نظامه وثابتاً فى مركزه ، ولكن بما ان بعض الكواكب ثوابت وبعضها سيارة فانه ان وافق هذا التعليل من جهة الثوابت فلا يوافق من جهة السيارات بل ان وجود الكواكب السيارة مبطل لهذا التعليل خصوصاً فى حال وجودها جميعاً فى مدارات مختلفة يتخللها بعض الكواكب الثوابت فلم يبق الا ان نفرض ان تينك القوتين متخالفتان ، وفى هذا الفرض اما ان تكون احداهما كبرى والاخرى صغرى واما ان يكون العكس فان فرضنا أولا ان قوة الجذب هى الكبرى وان قوة الدفع هى الصغرى فلا شك فى ان قوة الجذب لكبرها تتغلب على قوة الدفع فتظل الكواكب جميعها تتجاذب آناً فآناً حتى تصير مجتمعات فى مركز واحد من كبد السماء

وبما ان المشاهد بالنظر المجرد وبآلات الرصد مخالف لهذا الفرض من انها (الثوابت منها والسيارات) حافظة لنظامها منذ أجيال غلبت الاحصاء فيكون باطلا مافرضنا ، ولم يبق الا ان نفرض ثانياً أن قوة الدفع هى الكبري وقوة الجذب على العكس أى الصغرى فما لاشك فيه حينئذ ان تتغلب قوة الدفع فتجعل الكواكب تتدافع فتذهب الى أطراف الفضاء فلا نراها حتى ولا بالمراصد ، وبما أن المشاهد غير مافرضنا

فنتج ان هذا الفرض باطل أيضاً . وبما انه لم يتحقق أحد فروض كون القوتين متساويتين ولا كونهما مختلفتين بفرض احداهما صغرى والاخرى كبرى طرداً وعكساً فثبت انها فروض باطلة قطعاً حتى اذا فرضنا صدقها فى غير الكواكب (وما جذب المغناطيس للحديد الا خاصية فيه دون الحديد) ومما يؤيد ماذهبنا اليه ان علماء المراصد أثبتوا شذوذ كثير من الكوكب السيارة عن هذه النظرية واختفاء بعضها وظهوره ثانياً واختفاء البعض الآخر وعدم ظهوره وظهور مالم يكن معروفا من قبل وهو مثبت لتحقيق ماقدمنا ، هذا مع التفطن لدعواهم أن نظرية الجذب والدفع عامة على سائر الكواكب واذا كان هذا هكذا كما يدعون فكيف يتم ذلك للأجرام التى بينها وبين بعضها ملايين من السنين النورية [1]

واذا فرضنا جدلا ان نظرية (نيوتن) العالم الانجليزى من وجود قوتى الجذب والطرد صحيحة مع فرض صحة الفروض كلها فمن الذى أودع فيها تينك القوتين سوى موجدها . وهل مع اختلافها فى الجرم وخط الاتجاه وتباينها فى سرعة السير أو بطئه يتمكن الكوكب ذو الجرم الصغير من انفاذ قوة جذبه أو قوة دفعه فى كوكب ذى جرم كبير ليجذب أو يدفع كوكباً آخر يقابله أم كيف يتجاذب ويتدافع ذو جرم كبير مع ذى جرم صغير ، فهذه مثلا الارض أصغر من الشمس بمليون

(١) النور يقطع في الثانية الواحدة مائة وستة وثمانين الف ميل

وثمانمائة الف مرة كما قرره علماء الفلك فكيف بسيرها حول الشمس حال سير القمر حولها يتم لها جميعاً ان تتدافع وتتجاذب مع بعضها البعض وفى الوقت ذاته مع الكواكب الاخرى ويكون ذلك بقوة واحدة متساوية مع القطع بان سير الارض لا يساوى درجة سير القمر فخط مداره الذى يقطعه حول الارض أقصر جداً من مدار الارض حول الشمس مع تخالف الاتجاه . ان هذه النظرية تؤيد تخبط العلماء فى التعليل وان السر فى محافظة الكواكب على نظامها هو من علم مكونها وحده ولا تصل عقول أولئك العلماء لا منفردين ولا متحدين الى كنه أفعاله ولا الى كنه ذاته ، ولو انهم عوضاً من ان يشتغلوا بالنظر فى عظمة الكون بلا نظر الى عظمة مكونه ان يشتغلوا بتقديسه وتمجيده بعد الاقرار بوجوده وأحديته بما يضمن لهم الراحة فى حياتهم القصيرة الفانية وحياتهم الآتية الباقية فهو أجدر وأولى ، ولا يفوتنا ان نذكر انه من تخبطات الفلكيين التى تثبت عدم نظرية الجذب ما يقع من شذوذ بعض الكواكب عن السير فى مداره ومن هذا القبيل ماذكره (الدكتور كروملين) برصد المذنب الذى كان اكتشفه بونز فى سنة ١٨١٩ ميلادية ثم اكتشفه « دينكه » فى سنة ١٨٥٨ ميلادية أيضاً من ان المذنب المذكور من المذنبات التى لا تخضع للأصول الكونية المقررة فيما « يتعلق » بالمدارات بل تحاول دائما ان تشذ عنها وتتجاوز حدودها المرسومة لها وان طريقه الذى يريد اجتيازه كما يراه العالم المذكور فى مرصده انه سيجتاز

أقرب نقطة الى الشمس فى مداره فى ١٥ يونيو سنة ١٩٢١ أو قبل ذلك أو بعده بعشرة أيام ، ولما كانت أقرب نقطة من الشمس فى مدارى المذنب والارض « تكاد » تكون واحدة فى أواخر يونيو فان هذا المذنب « اذا تمكن » من ارجاء اجتيازه الى (٢٧) أو (٢٨) يونيو فقد يستطيع ادراك الارض فتتاح له فرصة التحكك بها وعلى كل حال فان « الارجح فى الاحتمال » و « المقدر وقوعه » هو ان تمطرنا السماء بوابل من الشهب والنيازك . . . الى ان قال و « الظاهر » ان هذا المذنب قد التقط « باغراق زميله » (هالى) من الاغارة على الكرة الارضية كلها فآثر ان لايقع في غلطة (هالى) من الاغارة على الكرة فهو يريد ان يجتزيء بمهاجمة النصف الشمالى من الكرة الارضية فقط ، الى آخر ماقال. وكم من مرة تنبأ الفلكيون عن حصول مصادمات بين الكواكب تكون سبباً في خراب العالم وعينوا زمنها ولم يحصل صدق ماتنبأوا به ، ونقطع بان ماتنبأ عنه (كروملين) مما سبق بيانه لايقع .

هذا وان لنا مع العلماء الطبيعيين الذين يجرأون على انكار الصانع والذين هم ممن يعللون استمرار الكواكب على نظامها فى مداراتها بقوتى الجذب والدفع سؤال هو « هل هذه الاجرام السماوية ذات حياة أم لا فاذا لم تكن ذات حياة فكيف تسير وتحافظ على السير فى مداراتها وتجذب وتدفع سواها واذا اضطررتم بناء على ذلك ان تقولوا ان لها حياة فهل هى مسيّرة أم مخيّرة فان كانت مسيّرة فلماذا اقتدرت على الشذوذ

عن السير في مدارات ما نسبتم أو تنسبون له الشذوذ ما دام هو مثلها مسيراً ولِمَ لم يحصل الشذوذ الاعلى ندرة، وان كانت مخيرة فلِمَ حافظت على السير في مداراتها وكيف شذ ما شذ منها عن مداره ما دام هو مثلها ولِمَ لم يحصل الشذوذ من المحافظات على النظام ما دامت هي مخيرة . ان ما تقولونه عن الافلاك تخمين بل رجم بالغيب ولم تصلوا ولن تصلوا الى حقائق أسرار الكون التي هي من علم مبدعه العظيم وحده كما أسلفنا . فسبحانه من إله أودع في كل شئ مظهر قدرته وأوجد من دقائق الكائنات مالم يحط به غيره خبراً لا إله غيره

وان كنت أيها الناظر في كتابي هذا

كيميائيا

فمن المعلوم ان علم الكيمياء يبحث فيه عن الظواهر الكيميائية التي تطرأ على الاجسام من طريق التحليل والتركيب فتحيلها الى حال أخرى غير الحال التي كانت عليها وقديماً قالوا : ان العناصر البسيطة التي هي علة التكوين اربعة هي الماء والتراب والنار والهواء وظلوا على هذا الاعتقاد اجيالا ، فلما ترقت بالعالم الانساني الاحوال علماً وعملا بما بذله الباحثون منهم من الجهود العظيمة بحثاً وتنقيباً فوجدوا على التحقيق ان كل واحد من هذه الاربعة مركب من عناصر أخرى ، ومع توسعهم في الابحاث علماً وعملا خلفاً بعد سلف توسعاً من الخلف فيما وصل الى

يده من مباحث السلف فلم يزل ولن يزال هذا العلم قاصراً مهما ترقت به الحال فان كثيرين من علماء الكيمياء طالما قالوا عن شيء انه عنصر بسيط ثم اتضح لهم انه عنصر مركب بعد اشتغالهم فيه بالدرس والبحث، وما ذلك الا لأن العناصر البسيطة فيها وهي أصل لغيرها فلا تمكن مشاهدتها الا في جسم بفعلها لا بكنهها وهو أمر مطابق لما قال بعض العارفين : ان الروح لا ترى في حال التجريد أي على البساطة بل في حال ارتباطها بغيرها كالجسم

هذا في التحليل وأما في التركيب فكثيراً ما يقف في طريقهم شيئان أو اشياء تتنافر ولا تتحد ولا يعرفون سر عدم اتحادها ولا يتمكنون من الاهتداء اليه ، ومع انهم لم يقف لهم بحث ولم تفتر لهم عزيمة ولم ينتهوا من استكشاف حتى يعقبه استكشاف فلا يزالون ولن يزالوا كذلك لأن أسرار الكون تفوت الحصر والعد ولا تقع تحت التذليل جملة لأن بطن الارض أوسع من أن يتناول ما في باطنه بحث واستقراء فليس من مقدور الجزء ان يلم احاطةً بالكل الذي هو جزء منه ، فطالما أعيى العلماء بحث أمور كثيرة لم يهتدوا الى تحليلها ومعرفة عناصرها كما لم يطمئنوا الى تعليلها كما عللوا سواها وهم في كل محاولاتهم في حالي التحليل والتركيب لم يتمكنوا بحال من الاحوال ان يصنعوا على وجه الاتقان ما صنعوا محاكاة لما هو من صناعة الطبيعة ، ذلك كما انهم لم يتمكنوا من تحليل العنصر البسيط الذي تحققوا من بساطته للوقوف على السر الفعال

فيه وعلى علة ايجاده ولا الى معرفة كنهه ، وهذه دعواهم والا فالعنصر البسيط مادام بسيطا لا تتأتى مشاهدته كما سلف البيان الا بفعله فى غيره ، فكلما ظنوه بسيطا لم يكن الا مركبا لكنهم لم يهتدوا الى كيفية تحليله بدليل انهم يقولون ببساطته اليوم فيظهر لهم تركيبه بعد اجيال أو أزمان قصيرة وذلك لجهلهم من قبل بتركيبه وعدم الاهتداء الى تحليله

ولو كان من ينكرون الصانع من علماء هذا العلم الذين تخصصوا له وتفوقوا فيه من سليمى الادراك والتصور لتساءلوا فيما بينهم عن شتى العناصر البسيطة التى توهموا انها بسيطة وعن اختلاف أنواعها وتنوع مفاعيلها وتفاعلها الكيميائى الداعى لقبول الاتحاد مما يقبل الاتحاد منها وعن كل مركب حللوه فوجدوه مركبا من عنصرين فأكثر هل كل عنصر أوجد نفسه على انفراد ؟ فاذا كان ذلك كذلك فما الذى دعا الى اجتماعه جملة واتحاداً ليكوّنوا ذلك الكائن المركب المشتمل على كل منها والذى كل واحد منها علة ايجاد مشترك كما يزعمون مع العناصر الاخرى التى هى من عوامل تركيبه ، وقديماً قال العلماء ان من الاجزاء يتكون الكل ولم يقولوا ان الجزء يكوّن الكل أى عن قدرة واختيار فيه ، فاذا فرضنا المستحيل وقطعنا بذلك ويكون كل جزء أى كل عنصر عاملا من عوامل ايجاد الكائن الكلى فهل الجزء يحيط علماً بالكل ويحيط علماً بشركائه من الاجزاء ولها فى نفسها قدرة ايجاد واختيار ، اذا كان ذلك كذلك فلماذا تذللت لعملية التحليل المحيل الى الانفصال ، ولماذا لم تجتمع من

تلقاء نفسها بعده أي بعد الانفصال ولماذا تتذلل وتنقاد لعملية التركيب أيضاً ، فمن هنا يعلم انه لاقوة لها ولا اختيار في أية حال من حالي التحليل والتركيب ، وحينئذ فيجب ان يتساءلوا مرة أخرى عن المؤثر الفعال في ايجاد كل منها منفرداً وايجادها كلها مجتمعة ، ثم يجب أن يتساءلوا ثالثاً اذا جهلنا السر الفعال في ايجاد وتركيب كائن من الكائنات العديدة التي لاتقع تحت حصر من جملة عناصر فمن لنا بان ندرك السر الفعال الذي هو السبب في ايجاد سائر الكائنات ماعلمنا منها وما لم نعلم ماوقع تحت قهرنا وسلطاننا وما نحن تحت قهره وسلطانه ، واذا فرضنا المستحيل جدلا وقلنا ان العناصر البسيطة مما توهموا ببساطته لها القوة والاختيار فلماذا بعضها حال الاتحاد بغيره لغرض الوجود يختار ان يكون كائناً دنيئاً حقيراً ولا يختار ان يكون كائناً جليلا عظيما ، ولماذا يختاران يكون تحت تأثير غيره ولا يكون غيره تحت تأثيره هو ؛ واذاقطعنا وحكمنا بانه لاقوة ولا اختيار لأحد العناصر تبعثه على ان يكون موجودا متحدا بغيره ولا لأن يختار الشكل الكلي للكائن الذي هو جزء منه افلا يصح حينئذ ويجب ان نحكم ونقطع بانه لابد من عامل فيها جميعاً يكون كلي القدرة كلي الاختيار مجهول لنا من حيث كنهه وحقيقته معلوم بجلائل أعماله وعجائب مصنوعاته وانه هو الصانع الحكيم مهما دعوه باسم من الاسماء أو نعتوه بنعت من النعوت

ان مذهب دارون الانجليزي قد علل الكائنات بالنشوء والترقي

وحاول اثبات ذلك فقال انها سلسلة حلقات تبتدئ من الأدنى وتنتهي الى الأعلى وقال بانقراض بعض حلقات ثم لما انتهى من أبحاثه جمعاء قال إن أصل الكائنات كلها من القوة والمادة وارتباطهما معاً وهو تعليل مقبول عقلا ولكن يجب ان نسأله أي ان نسأل مروجي مذهبه ومعتقدي صحته ماالذي وجد منهما أولا القوة أم المادة أم هما وجدا معاً فان قيل بوجودهما معاً فهل وجدا بالصدفة ومن تلقاء أنفسهما أم أوجدهما موجد فان قيل بهذا فالموجد لهما هو ماندعوه بالإله ، وان قيل وجدا بالصدفة فما الذي حملها على الاتحاد وهل هو ميل كل منهما اليه أم بتغلب أحدهما على الآخر فان قيل بالأول فحيث انتهينا الى شيئين متحدين هما علة الايجاد فهما كالشيء الواحد إله واحد لكن استحالة ذلك التركيب معقول اذا استحال اذعان كل منهما للآخر وتوقف نفوذ كل واحد منهما على الآخر ، واذا قيل بالثاني فتكون القوة هي صاحبة سر الايجاد وتكون هي وحدها علة العلل في التكوين أي انها هي قوة مبدع الكون ومكوّنه على هذا النظم البديع الذي له الغلبة والقهر على كل شيء وهو الواحد الأحد

أيها العالم الكيميائي انظر وفكر في أمر النحلة كيف ركبت من مختلف الزهور عسلا وكيف كوّنت بيوتها من مادة قويمة التركيب بدون معمل كمعملك وبلا كلفة ومشقة مما تعانيه أنت وبلا آلات وأدوات غير يدها وفمها

أيها العالم الكيميائى انظر وفكر فى أمر دودة القز كيف تصنع حريرها وهى دودة ضعيفة فتكسوك باستخدامك فى العناية بشأنها وشأن مصنوعها . وانظر وفكر فى أمر العناكب كيف تصنع شبكتها من خيوط واهية ولكنها تصطاد بها رزقها من الذباب وتكفى حملها وإيوائها وكيف انها لاتختار الازوايا الأمكنة ، فان كان ذلك عن نظر وفكر وتبصر منها جميعاً فقد أشبهتنا ولا معنى للقول باستحالة العقل عليها ، وان قلت بأنها عديمة العقل والادراك فكيف أتت بمصنوع يعجزك عمله ؟ إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب

أيها العالم الكيميائى ان جسمك مركب من دم ولحم وعظم وعروق واشتاج وعضلات وخلايا وكلها مركبة من عناصر متنوعة فهل يمكنك أن تصل بعلمك الى مايحفظها من الفساد والانحلال لتظل كائناً حياً ؟ لابد من أن يكون جوابك « لا » فاذا كان جوابك ايجابا فلماذا لم تفعل وان كان سلباً فلم لم تعترف بالصانع الحكيم فتعبده وتمجده وتشكره لتكون من الفائزين فهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ايجادا واعداما وايجاداً بعد اعدام وهو القادر على كل شىء لاإله غيره

وان كنت أيها المطلع على كتابى هذا عالما

فلكيا

فاعلم ان الناس قديماً كانوا يظنون انه من المستحيل وجود شىء فى

الفضاء كبيراً كان أو صغيراً دون أن يرتكز على شئ لأنهم كانوا لا يعلمون شيئاً عن الفضاء الذى لا نهاية له اذ ما كانوا يتفكرون فيما يكاد يفقأ عيونهم من العوالم الكثيرة السابحة فى الفضاء فكان البعض يعتقد أن الأرض محمولة على قرن ثور كالمصريين قديماً والبعض كان يعتقد أنها محمولة على ظهر فيل كالهنود القدماء وهكذا إلى آخر ما كانوا يعتقدون وظل هذا وذاك من الاعتقادات الفاسدة راسخاً فى الأذهان حتى ازالته تحقيقات العلماء فلم يبق مثل تلك المعتقدات الا لدى فئة قليلة من الناس هى كالعدم الآن ، ولم يبق إلا أن فريقاً من علماء الشرق من غير المسلمين غالباً يعتقدون بثبوت الأرض ودوران الشمس بخلاف علماء الغرب الذين يعتقدون العكس أى ان الأرض سائرة ودائرة حول الشمس التى يقولون بأنها ثابتة بمناسبة حفظ الابعاد بينها وبين عالمها من سائر الأجرام والا فهم يقولون بأنها سائرة بما يتبعها إلى غرض مجهول ، وان اعتقادهم هذا لا يختلف فى شىء عما ورد فى ديننا الشريف فان القرآن الكريم يقول : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ) وبديهى أنه مادامت الجبال سائرة وهى بالتحقيق أجزاء من نفس الكرة الأرضية فعلى هذا تكون الكرة ذاتها سائرة على التحقيق ، يشير إلى هذا قوله فى القرآن الكريم (رب المشرق والمغرب) وقوله تعالى (رب المشرقين ورب المغربين) وقوله عز وجل (رب المشارق والمغارب) وما ذلك إلا لأنه بالنسبة للجرم

لكلى للأرض فلها مشرق واجد ومغرب واحد ، وبالنسبة لصفحتي لكرة فلها مشرقان ومغربان لأن لكل صفحة مشرق ومغرب ، وبالنسبة لكل قطر من الأقطار أو بلد من البلاد فلها مشارق ومغارب عديدة اذ لكل واحد من تلك الأقطار والبلدان مشرق ومغرب خصوصيان يخالفان مالدى غيرها من حيث المواقيت ، ولولا كرويتها ودورانها حول الشمس لما كان يحصل ذلك . وأما من جهة الشمس فيقول (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) ومن هذه الآية تتحقق انه ليس من فلك ثابت مطلقاً إلا بنسبة ماسبقت الاشارة اليه كما هو الشأن فى الاعتقاد عند علماء الغرب الفلكيين ، ويؤيد هذا المعني قوله تعالى : (والليل نسلخ منه النهار) وقوله تعالى (فمحونا آية الليل) وان الليل والنهار فى الآيتين ينصرف إما الى معناهما اللغوى المعروف وإما الى معني النور والظلام أى الأجرام النورية المضيئة بنفسها كالشموس والأجرام المظلمة بذاتها المضيئة بغيرها أى بواسطة الشمس كالأرض والقمر إلى غير ذلك من المعانى التي لا يناقضها علم أولئك العلماء .

ومن المعلوم ان كل انسان متى وصل الى سن التمييز فأول مايلفت نظره السماء بما اشتملت عليه صفحتها من سائر الأجرام الفلكية المنظورة بالعين المجردة ، وإذ يكون فى سن الفطرة أى فى دور الاعتقاد

الفطرى السليم الخالى من المعتقدات النقلية المختلفة يعتقد لأول نظرة أن لهذه الكائنات الفلكية مالكا هو الذى صنعها وكوّنها ، ولكن تلك المعتقدات النقلية هى التي توجد عند الناس بعد ذلك الدور الفطرى مختلف المعتقدات عن حق وعن باطل وعن خليط بينهما باختلاف تلك النقول ومصادرها وسلامتها من الخلط والخطل أو اشتمالها عليهما وذلك لاختلاف المصادر فى الصدق والكذب والصواب والخطأ وسلامة الادراك والوهم وتباين درجات القوى العقلية والعلمية

ومن المعلوم الواضح لديك أيها العالم الفلكى ولدى كبار علماء الفلك أن كلما دوّن أسلافكم ودونتموه أنتم فى كتبكم الى الآن وكلما رصدتموه بالمراصد بواسطة التليسكوب أو السبكترسكوب وقررتموه فى تلك الكتب يفيد عظمة الكون فقد قلتم ان أحد مجاميع النجوم التى يظهر ان الشمس تغيب فيها شهراً بعد شهر وهى : الحمل والثور والجوزاء والسرطان الخ فى كل منها من ثلاثين ألف شمس الى مائة الف شمس : وكل شمس منها كرة نارية مستمرة الدوران على محورها وتنير ما حولها من الاثير ، وقد يقتضى اجتياز هذا المجموع مائتين الف سنة نورية ، ومن المعلوم عند العلماء أن النور يقطع فى الثانية الواحدة مائة وستة وثمانين الف ميل وبناء عليه فالنور يقطع فى السنة الواحدة حاصل ضرب ١٨٦٠٠٠ فى ٦٠ ثانية فى ٦٠ دقيقة فى ٢٤ ساعة فى ٣٦٦ يوماً أى ٦٠١٧٩١٨٤٠٠٠٠٠ أى ستة كتريليونات وسبعة عشر

بليوناً وتسعمائة وثمانية عشر مليوناً وأربعمائة الف ميلا، فكيف يكون حساب ما يقطعه النور فى المائتين ألف سنة التى فيها يجتاز النور المساحة الفضائية التى يشغلها ذلك المجموع المملوء بالشموس والسيارات الكثيرة الأخرى . وقلتم أيضاً إن كل شمس تدور حولها سيارات كروية وتلك السيارات الكروية تدور على محورها أيضاً .

إن ما أخذناه هنا من أقوالكم التى بسطتموها وأيدتم صدقها يغنينا عن الاكثار فى بيان عظمة هذا الكون العظيم فهو يكفى لأن يوجب عليكم أن تعترفوا بعظمته من تلقاء أنفسكم ، مادام أن هذا الذى نقلناه هو تقريركم وتحقيقاتكم عن بعض ما فيه خصوصاً وقد ثبت انه مستمر على نظامه البديع منذ وجد من أجيال تفوت العد والاحصاء الى وقتنا هذا ، وعلى هذا فنسألكم عن هذا الكون العظيم بما فيه من شموس وسيارات وما يبدو مما لم يكن معلوماً من تلك الشموس والسيارات مما تخبروننا به فى المجرات المتعددة آناً بعد آن بواسطة مراصدكم هل قام بنفسه بكل مشتملاته بدون موجد أم وجد بمؤثر آخر ؟ انكم مهما علمتم حدوثه وبنيتموه على أسباب فلا بد من أن تنتهوا الى سبب مجهول لكم من حيث كنهه وحقيقته معلوم بأعماله وعجائب مصنوعاته وتقبل منكم أن تسموه بما تشاءون من الأسماء وتنعتوه بما أردتم من النعوت ، والا فليس لمنكر وجود الصانع أن يقول ان كل كائن من هذه الكائنات العظيمة أوجد نفسه أى قام بنفسه بلا موجد لما بينها من الارتباط وكون

بعضها تابع للبعض الآخر وكون كل واحد منها مسخر تحت قهر الحركة وما يقوم بنفسه لا يكون مقهوراً ولا تابعاً لغيره بل يكون كلي الارادة كلي الاختيار ، فمتى لم يكن كذلك فلا يكون قائماً بنفسه أي بلا موجد ، ولولا ذلك لما علمتم كونها سابحات في الفضاء ومحافظات على نظامها في سائر حركاتها بعلة قوتي الجذب والدفع جريا وراء العالم الطبيعي الانجليزي فقد قلتم بشذوذ كثير من الأجرام عن قانون حركته التي تعودتم نظرها بالمراصد كما قلتم عن مذنب « هالي » وغيره فضلا عن اختلاف مدارات تلك الشموس والسيارات طرداً وعكساً وتنوع أجرامها وتباين ابعادها ومغايرة مقادير قوي سيرها فكل ذلك لا يؤيد تلك النظرية بل يجعلنا نستخلص مما ذكرتموه كله ان سر استمرارها على نظاماتها بيد مكونها . ومما لا ريب فيه أن من يقول غير هذا وينكر وجود الصانع الحكيم لا بد أن يكون مجنوناً بجنون خاص نسميه جنون فساد الاعتقاد الناتج عن عدم سلامة التصور مهما كان القائل به فيلسوفاً ومهما يأت بالعجائب لأن الانكار مخالف للعقل الذي يهدينا إلى السبيل الواضح ومؤدّ الى الاستمرار على البحث والتعليل وراء ما ليس من قدرة النوع الانساني دركه ولا الوقوف على كنهه وحقيقته . فسبحانه من إله لا تكفي سائر لغات العالم للتعبير عن عظمته ومجده لا إله غيره .

وان كنت أيها الناظر فى كتابى هذا

طبيبا

فكنت نطاسيا حاذقا فى صناعتك محيطا بدقائقها فانك لا تكون فى حاجة الى اطالة الشرح والبيان لافاتك الى بديع الصناعة فى الجسم الانسانى والحيوانى وما أودع فيهما من دقة التركيب التى تنذر بأقل تأمل انه لابد من أن يكون مخلوقا لصانع قادر حكيم خصوصا متى كان المتأمل طبيبا اذ يكون أعرف من سواه بقدرة ذلك الصانع لكن خشية أن تكون ممن ينكرون الروح أو ممن لا يعترفون بوجود الصانع وقليل ماهم فأقول :

اذا أردنا أن نعرف ما السر الفعال الذى يجعل الانسان يتحرك ويفكر ويقول ويعمل فلا بد من أن يتوجه نظرنا

أولا — الى ثلاثة عوامل رئيسة هى المخ والقلب والدم ، فان المخ اذا أصابه خلل يمنع من استمراره على أداء وظيفته فالانسان يموت وقد قال الأطباء عموما ان المخ مركز الاحساس ولكنهم لم يقدروا أن يعللوا سريان الاحساس منه الى المحل الملموس وعودته اليه ولم يعرفوا قدر الزمن الذى يتم فيه الاحساس بالدقة وكلما دونوه فى ذلك يقبل المناقشة لأنه لا يشفى الغليل ما أوضحوه من التعليل ، وأما القلب فكذلك اذا اعتل وفسد أو اذا لم يصب بأذى ولكنه وقف عن الحركة وسكن فان الانسان يموت ، وأما الدم فمثلهما اذا فسد أو استنزف من الجسم فان

الانسان يموت ، فدلت اصابة أحدها فى حال سلامة الآخرين وتسبب الموت عنه ان لم يكن واحد منها عاملا فى الحياة وحده خصوصاً عند مانرى أنها لو بقيت جميعها فى سلامة من العلل وانقطع التنفس بسبب من الأسباب فالانسان يموت

وثانياً — الى ان التنفس زفير وشهيق فاذا تمت عملية أحدهما ولا تتم الأخرى فلا تتم وظيفة التنفس التى عليها تتوقف وظيفة الرئتين اللتين اذا أصيبتا أو أصيبت احداهما فتعطلت عن تأدية احدى حركتى الانقباض والانبساط اللتين عليهما تتوقف حركة الدورة الدموية التى هى حركة باطنة معلولة لسلطان شئ من الخارج فلا بدمن أن الانسان يموت ، فهل مع هذا البيان يصح لنا أن نقول ويكون قولنا صحيحاً معقولا أن الجميع هو سر الحياة ؟ كلا اذ فى تلف أحد ماذكرنا فقدان الحياة .

وثالثا — على أنه قد تكون جميع الأعضاء التى يعللون بها الحياة سليمة والانسان يموت متى انحطت أوارتفعت الحرارة فى الجسم عن الدرجة المادية التي درجتها عند أهالى المنطقة الباردة غيرها عند أهالى المنطقة الحارة ، سواها عند أهالى المنطقة المعتدلة ، فهل الحرارة هى سر الحياة

ورابعا — الى اننا اذا قدرنا وفرضنا أن لا يكون شئ من كلما أوضحنا من الطوارئ على الجسم ولكن منع الانسان من الغذاء

والشراب فالانسان يضعف ويموت ، واذا كان هذا فهل من الحق أن نعتبر الغذاء والشراب شريكين مع جميع ماذكرنا فى سر تكوين الحياة واذا كان هذا فلماذا لايموت الانسان وقد انقطع عن الغذاء والشراب فى حوادث النوم الطويل مدة طويلة ، ولماذا ان رجالا فى الهند تمتنع عن الغذاء والشراب امتناعا كليا بل يدفنون في التراب محرومين من نعمة التنفس زيادة على حرمانهم من الغذاء والشراب ولا يموتون بعد أن يخرجوهم ، فهل لم يكف التأكد من حصول هذه الحوادث الخارقة وهل لم يكف التأكد من عدم صدق نظرية أن ماذكرنا كله أو بعضه هو سر الحياة ويكون مرشداً نافعا يعلمنا أن سر الحياة السارى فى الجسم هو شيء آخر غير مدرك لنا الا بكوننا به ندرك ونفهم وبه نريد ونعمل وبه نحس ونشعر

وخامسا — الى أنه اذا كان استمرار سلامة اجزاء الجسم كلها مع استمرار توفر الغذاء والماء وكل شروط الصحة غير موصل الى استمرار الحياة فهلا يعلم لنا بالضرورة ان المدد المؤدى الى الحياة هو الروح وانها مغايرة للجسم الفاني

وسادسا — الى انكم والعلماء الطبيعيون تقولون ان المادة لا تنعدم ولا تتجزأ أى ان الجسم ينحل وتعود عناصره المشتمل هو عليها الى العناصر المماثلة لها الكائنة فى التراب ، فهل من سلامة العقل أن نعتقد بأن الذى يفسد وينحل ويعود الى عناصره المماثلة له يكون باقيا خالدا

ولا نعتقد بأن ذلك السر الذى وضح انه ليس من مقدورنا الوقوف على حقيقته يكون باقياً خالداً كبقاء المادة وخلودها كما تقولون ، والا نعتقد بأن ذلك السر امره بيد ذلك الصانع الحقيقى للكائنات كلها ، خصوصاً وانكم لا تقدرون ان تعللوا كيف ان الحياة ليست على نظام واحد فى كل كائن حى فمنها مايعيش فى الهواء فقط ومنها مايعيش فى الماء فقط ومنها مايعيش فيهما معاً على السواء مما تعبرون عنه بذى الحياتين ، افلا يكون هذا مقنعاً ان عامل التنويع فى الحياة وكيفياتها ومصور الأجسام على اشكالها المختلفة هو وحده خالقها ومبدعها .

وسابعاً — على انكم قررتم ان الحواس في الانسان خمس فلماذا هى فى بعض الحيوانات زائدة عَلَى خمس كالحاسة السادسة فى الحمام التى بها يعرف مقره من تلقاء نفسه مهما كان بعيداً ولماذا هى فى البعض الآخر ناقصة عن خمس ككثير من الحيوانات والحشرات ، ولماذا بعضها فى بعض الحيوانات اقوى كحاسة الشم فى الكلب مثلا ، ولماذا ان النبات يحس كالانسان ومادة الاحساس فى بعضه اظهر ومنه مايشارك الانسان فى اكل اللحوم كالنبات الموجود فى جهات امريكا وكالنبات المسمى بعصيدة الزهرة وهو نبات حسن المنظر له زهر ابيض على حوافى اوراقه اشواك دقيقة كالأهداب عليها سائل كالعسل يقع عليه الذباب فتنطوى عليه اوراق الزهر ويشتبك بعض اهدابها ببعض وتضغط عليه حتى تهدمه الحياة وتمتصه ولا ينشر ورقها كما كان الا بعد

تمام هذه العملية . ولماذا ان المغناطيس به حاسة تجذب الحديد ولا تجذب غيره ولماذا هذا الاختصاص ، فهل هذا من خواص الأجسام أم من خواص الأرواح أى القوى العاملة فيها ، وعلى أى حال فلا بد من أن يكون هذا من قوة أخرى خارجة عنها جميعاً هى قوة الخالق العظيم

وثامنا — انكم قد شرحتم الجسم الانسانى والحيوانى وعرفتم دقائق تركيبهما وحاولتم شفاء أمراضهما التى تدعو الى فسادها فلماذا يظل الموت يختطف المرضى من بين أيديكم قهراً ولماذا لم يكن من قدرتكم أن تتمكنوا من ايجاد ماتتقوا به فساد الجسم الحى حتى لا يموت ، ولماذا لم تتمكنوا من حفظ اجسادكم لكى تطيلوا أعماركم اكثر من أعمار الذين يجهلون طبكم وطرق علاجاتكم على الأقل وليس لأجل أن لا تموتوا .

وتاسعا — الى مختلف الصور والأشكال فى أنواع الحيوانات وما تحتها من الأجناس ، هل كل نوع وجد بصورته وشكله اختياراً أم اضطراراً فان دعوى الاختيار يدفعها كون بعضها على شكل دنىء والمختار لا يرضى لنفسه الا الكمال ، ومع هذا فهل فهمتم مع هذا سر ما بين القط والفار من العداوة والبغضاء أو ما بين الكلب والذئب أو ما بين القط والثعبان حالة اختلاف تركيب اجسامها حجماً وشكلاً وصورة وهل احطتم خبراً بما بين الحشرات والحيوانات المتعادية منها والمتحابة ولو على جانب صغير من الاحاطة ، وهل استطعتم ان تقبضوا على الحيوانات المتناهية فى الصغر وتشرحوها وتعرفوا دقائق تركيبها

ومعرفة مقدار القوى العاملة فيها وسر وجودها ووجوه نفعها وضرها وهل احصيتموها عدا وانتم كل يوم تعثرون على جديد من أنواعها ، لا شك ان ذلك ليس من طاقتكم وحولكم وقوتكم ولا ان تعرفوا كيف تتغذى وكيف تعيش وكيف تتزاوج وتتوالد حالة ان سن الابرة يحتوى الملايين منها وان الواحد منها يعمل على سن الابرة سياحة طويلة كسياحة عظيمة لسائح على سطح الكرة ، فهل هى على هذا النحو اوجدت نفسها فمن المعلوم انكم تقولون ان جسم كل حيوان مركب من حويصلات صغيرة وان كل حويصلة تلد حويصلة مثلها ثم تموت وتندثر فى ساعة او ساعات أو يوم او ايام او عام او اعوام وهكذا وان حياة الفرد من اى نوع من انواع الحيوانات مثل حياة الحويصلات أو الخلايا التى يتألف منها فلماذا وأنتم تقولون انها أوجدت نفسها كيف لم تختر أن تبقى بدون فناء وكيف لم يختر كل فرد منها أن يكون متسلطا لا مسلطا عليه ، ان اليقين كل اليقين معرفة ان المختار يكون كلى الادارة كلى الاختيار ولا يكون كذلك الا الواحد الحى الخالق المصور لسائر الأنواع لأنه لو لم يكن الأمر كذلك فلماذا هذه الكائنات تتنازع البقاء ولا تقدر عليه ، وكيف اننا نشاهد فى الأطعمة الفاسدة والفواكه التى فسدت كائنات صغيرة متولدة فيها فهل هذه أيضاً أوجدت نفسها أم هى من الكائنات الموجودة من ذات تركيب تلك الأطعمة والفواكه قبل أن تفسد وقد آن لها بفعل ما أودع فيها

من سر تكوينها الذى نجهله بيد ذلك السبب المجهول الذى يلجأ اليه المنكرون دائما فى تعليلاتهم وهو هو المجهول من حيث كنهه وحقيقته المعلوم بأعماله وعجائب مصنوعاته فهو المحي المميت القادر الحكيم وحده لااله غيره

واذا كنت أيها الناظر فى كتابى هذا

عاملا اداريا

﴿ أى ممن يتعاطون الحكم على الناس ﴾

فاعلم وفقنى الله تعالى واياك الى الحق وأيدني واياك بروح منه انك فى مركزك الذى تشغله من احدى وظائف الحكم على الناس حلقة من حلقات متصل بعضها ببعض تكوّن سلسلة رجال من أمثالك هم شركاؤك فى اجراء الأحكام وان كل فرد من الافراد الذين تتكوّن منهم هذه السلسلة يغبطك أو يحسد من فوقه ويتمنى فضلا عن درجة أرقى من التي هو فيها أن لو صار طرف السلسلة الاخير من الجهة العليا ، وما كنت تحلم وأنت طفل بل ولا تظن أن تكون حاكما يوما ما ، بل ربما يكون راق فى نظرك صاحب منصب أو ذا جاه حين شاهدته يتيه بسلطانه على من تحته فتمنيت لو كنت محله فقد كنت مثلك وأنا تلميذ صغير أتمنى لو أكون مثل معلمي في سعة العلم ، فبحقك عليك هل ترى ان كل شخص ممن هم فوقك وممن هم تحتك حاصلا على مركزه باستحقاق عن

كده وجده ومعلوماته وانه قائم بواجبات منصبه أتم قيام ، لا أظنك تجيبنى الا سلباً بدليل ما نشاهده من سقطات أصحاب المناصب فى كل بلد من البلاد ومصر من الامصار ، وما ذلك الا لاختلاف مافطر عليه الناس من اختلاف فى الأخلاق وتباين فى الاعمال والاميال وتفاير فى درجة العلم والتصور والنشاط الى غير ذلك من مختلف الشؤون والاحوال هذا مع كلما تبذله كل مملكة من الممالك فى انتقاء رجالها من حيث النشاط والكفاءة والاستقامة وسائر الخلال الحميدة ، فما السر الفعال فى كل هذا يا ترى ، أهو التربية البيتية أم المدرسية أم الوسط أم الطبع الجبلى أم غير ذلك ، فان كان التفاير ناجماً عن التربية البيتية أفهل فى امكان المخلوقات أقواهم وأضعفهم أن يجعلوا تلك التربية عاملة بالمساواة فى من عنوا بتربيتهم فى كل بلاد العالم بأن يجعلوا الآباء والامهات فى درجة واحدة متساويين من جهة المنشأ والمآل وسائر الخصال ، ان هذا مستحيل بدليل ما هو مشاهد فى كل بلد ومصر ، وان كان عن التربية المدرسية فكذلك الحال ليس فى الامكان أن يتساوى المعلمون فى درجات العلم والنشاط والاخلاق والاستقامة والتفهم والتفهيم والمحافظة على الواجبات ولا فى أن يتساوى التلاميذ فى قبول النصح والارشاد والاجتهاد والاستعداد والذكاء ، ان هذا مستحيل أيضاً بدليل ما هو مشاهد فى كل جهة من الجهات ، وان كان عن اختلاف الوسط فى سائر أقطار الارض فهذا من باب الأولى ليس من قدرة الناس أن يكونوا متساويين فيه لوجود التباين فيما جبل

عليه كل شخص اذ لولا هذا الاختلاف ما وقف بين يدى أحد الحكام أحد من الخصوم كما قيل

لو أنصف الناس أراحوا القاضيا وبات كلٌّ عن أخيه راضيا

وبناء على هذا فعلينا أن نتساءل عن ذلك وعن اختلاف طرق الاحكام في كل مملكة من ممالك الارض لاختلاف القواعد والقوانين التي يبنون عليها تلك الاحكام ، وما كان كل مملكة تستحسن أو تستقبح ما عند الاخرين منها الى آخر ما يخطر على البال من كل ما يقال في مثل هذه الاحوال

اننا اذا دققنا النظر بامعان وانصاف لتحققنا ان السر الفعال فى ذلك كله ليس من الخلق مطلقاً بل أنه أمر خارج عن طوقهم ، اذ أن مجموع رجال الحكم فى كل مملكة لا يريدون أن يكونوا أقل من غيرهم تقدماً ونظاماً وكمالا ، وان ذلك بيد قادر مجهول من حيث كنهه وحقيقته معلوم بأعماله وعجائب مصنوعاته لا اله الا هو الحكيم العدل اللطيف الخبير

وان كنت أيها الناظر فى كتابي هذا من غير من خاطبنا أى لا فلاحاً ولا صانعاً ولا أى فرد ممن خاطبناهم فتحتاج الى

دليل عام

﴿ على وجود الصانع القديم سبحانه وتعالى ﴾

فها أنت فى حال اطلاعك على هذا الكتاب موجود فاذا سألتك

عن وجودك هذا هل هو وجود اختيارى أم اضطرارى؟ فلا بد من أن تجيب بأنه وجود اضطرارى اضطرك اليه أبواك من طريق التناسل ، وها أنت بعد وجودك هذا قياساً على المشاهد سينتهى الى فناء اضطرارى أيضاً ، حالة انك وكل انسان حى يكره أن يموت ويتمنى لو بقى حياً حتى أننا نرى الاحياء يتبادلون الدعاء بعضهم للبعض الآخر بطول العمر ، فدل ذلك على أن الناس حتى سائر الحيوانات والنباتات تحت بداية وجود قهرى ينتهى بفناء قهرى مثله ، وأنها جميعاً حال وجودها فى الحياة تحت تأثير الاعراض من حركة الى سكون ومن صورة الى غيرها ومن حال الى سواها وان كلا منها يزول فثبت بدليل ما تقدم أنها حادثة بفعل غيرها

فاذا توهم متوهم ان الكائنات قديمة وأنها أوجدت نفسها ففى هذه الحال إما أن تكون الاعراض التى جعلتها تحت القهر والسلطان والاضطرار موجودة معها واما ان تكون طارئة عليها بعد وجودها ، فاذا فرضنا الاول فتكون أثبتنا لها الاختيار ، والمختار لا يضع نفسه تحت القهر والاضطرار بداهة ، فثبت فساد فرض ان الاعراض وجدت معها ، واذا فرضنا الامر الثانى فقيل ان الاعراض طرأت عليها بعد وجودها فلا بد من ان تكون تلك الاعراض طارئة عليها بفعل وتأثير غيرها فتكون حادثة ولما حدث أوجدها من العدم ، وذلك لانه لولا ربان السفينة ما تحركت الآلة التى تسيرها ، ولولا ان واضعاً وضع فى احدى كفتى الميزان ما يثقلها فيجعلها تنخفض الى أسفل فترتفع الاخرى الى

أعلى لظلتا متساويتين ولما رجحت احداهما فان الترجيح بلا مرجح لا يمكن ، وبالاجمال لولا المؤثر ما تأثر الاثر ، فثبت بهذا صحة الفرض الثاني وثبت المطلوب من ان الكائنات بما حوت حادثة ولها محدث كما سبق البيان ، وبما ان نظام الكائنات عجيب ومدهش ومستمر فيدل على ان محدثها إلـه واحد قادر فعال كلى القدرة كلى الاختيار أزلى أبدى لا معبود غيره ولا امر الا امره جل شأنه وتعالى مجده

الفصل الاول

فى

بيان اختلاف الناس من حيث معرفة الصانع القديم سبحانه وتعالى

اعلم وفقني الله تعالى واياك اني لم أضع كتابي هذا للجدل ولم أخص به قوماً دون آخرين كما انى لم اقصد به الحط من مقام فئة من الناس مهما كان اعتقادها بل لبيان ما اعتقد انه الحق وانه السبيل الواضح للوصول الى معرفة الحق سبحانه وتعالى ، ولقد حاولت بما مر عليك اثبات وجود الروح وانها خالدة وان للكون صانعاً قديراً واحداً لا اله غيره ، وارانى قد حاولت فيما حاولت ان ادل الناس على مالا يحتاج الى قليل ولا كثير من الادلة والبراهين وما هو أوضح واظهر من الشمس لذى عينين بل وللأعمى ذى البصيرة ، فأن كنت أيها المطلع على كتابي هذا من الذين يرون أن الله تعالى فى كل شئ وفوق كل شئ ومنه كل شئ وبه كل

شيء وانه هو المعلوم المجهول أو المجهول المعلوم الذى إن اردنا أن نقف على حقيقة كنهه تمام الوقوف كبحثنا فى الجوهر والعرض فقد جهلناه والذى ان أردنا ان ننظر فى عجائب مصنوعاته وجلائل أعماله عرفناه فوجدناه ورأيناه دون افتقارنا الى شيء من تلك الادلة والبراهين ، فان كنت من هؤلاء فاعذرنى وسامحنى فقد كتبت ما كتبت عن الحضرة العلية المحيطة بالاكوان الغنية عن التعريف والبيان لقوم مفتقرين للبرهان حتى على البديهيات ، لعدم عناية من قاموا بتربيتهم بأمر تعليمهم الدين وقصر همهم على تثقيفهم بما يكسب أمر الدنيا لاغيرها فى زمن كثرت فيه حرية الفسق والزندقة وإطلاق القول بما يضاد اليقين دون مبالاة أو خوف ، وانى لأرجو الله سبحانه وتعالى ان أكون سبب الهداية لكائن من كان من بنى الانسان الذين أنا فرد من احقرهم ، وقد أوضحت بطرق شتى من البراهين على ان للكون صانعا قديما قديرا وبقى ان أبين كيف اختلف الموقنون بوجوده سبحانه وتعالى من حيث معرفته ، وايضاح أى العقائد هى عقيدة المهتدين فأقول :

اختلف الناس من حيث معرفة هذا الخالق العظيم جل وعلا فانقسموا الى قسمين : موحد وغير موحد ولا خفاء فى انهم بهذا الانقسام فريق على الحق وفريق على الباطل ، فأما الموحدون فقد انقسموا الى قسمين : موحد منزه وموحد غير منزه ، فأما أهل القسم الأول من الموحدين فهم الذين قالوا عنه انه سبحانه وتعالى إله تنزه عن

الشبيه والمثيل، وانه لا يعرف كيف هو الا هو فهو موجود لا كالموجودات التي تدرك بالحواس أو التي تدرك بنور العقل من الموجودات الغير منظورة التي مرت الاشارة اليها فيما سلف ولكنه موجود لا يتحيز في مكان ولا يمر عليه زمان ولا يشاهد بالعيان وان العجز عن ادراكه عين المعرفة والبيان، وانه واحد لا يتعدد أحد لا يشاركه في الواحدية أحد، وانه موجود بنفسه دون افتقار الى موجد أزلي لا بداية لوجوده، أبدي لا نهاية لوجوده كذلك، وانه غني عن كل ما يفتقر اليه كل موجود، وان كل موجود مفتقر اليه وانه منعوت بنعوت الكمال، وأما أهل القسم الثاني فقد انقسموا الى فرق شتى، فمنهم من قدس النار والشمس والنور الكائن عنهما بجامع الشبه بينها وبين الله تعالى في القوة والسناء كما يزعمون، ومنهم من نصب التماثيل ليصور تحت الحس ما غاب عنه من أوصافه تعالى، ولهذا تنوعت لديه تلك التماثيل بتنوع المنازع والتخييلات، ومنهم من قدس الحيوانات كالثور والفيل الابيض وبعض الحشرات السامة بدعوى انه لولا أن للخالق سبحانه وتعالى عناية خاصة بها لما كانت ممتازة بالقوى والمزايا كما يزعمون، وبالاجمال فأهل هذا القسم كثيرون غير من ذكرنا وهم بين مشبه فقط ومشبه مجسم معاً

وأما غير الموحدين فقد انقسموا أيضاً الى اقسام شتى، فمنهم من قال بالحلول فقط ومنهم من قال بتعدد الأصول الذي تركب منها الاله كما زعموا، ومنهم من جمع بين القول بالحلول والاتحاد والقول بتعدد

الأصول فى وقت معا ، بزعمهم ان ماذهبوا اليه عين التوحيد ، وفوق ذلك ان كل واحدة من هذه الاقسام تخطىء غيرها وتجهله بانها هى وحدها على الحق ، وأعجب منه انهم يدعون مخالفيهم الى اعتناق مذهبهم ويبذلون غايات جهودهم فى ذلك . وبناء عليه فأعلى وأنزه المعتقدات عقيدة الذين يقولون عن الله تعالى انه لايعرف كيف هو الاهو ويقفون عند حدود الادب في جانب الله تعالى

وأما سبب الاختلاف فهو :

أولا من وجه عام نقول : انه من المعلوم ما كان عليه الناس من الجهل العظيم فى العصور الأولى فكان ذلك الجهل داعية سوء التفاهم بين الرسل والامم الذين أرسلوا اليهم ، وللتدليل على ذلك أذكر ماسمعته من أحد علماء الهنود البوذيين المدعو « تولوجرام » اذ علل لى سبب اتخاذ التماثيل عند اتباع بوذا انهم سألوه ذات يوم ان يصف لهم الخالق جل وعلا فقال لهم تقريباً لافهامهم وقد تناول من الارض حصاة كشكل الكرة : هل لهذا الحجر طول وعرض فقيل لا فقال لهم هكذا الخالق ، وقال لهم مرة تقريباً لأفهامهم أيضاً : ان عظمة الخالق سبحانه وتعالى متجلية فى مخلوقاته وهى أوضح دليل عليه فالقوة والصبر على مشاق العمل الموجود فى هذا وأشار الى ثور كان موجوداً أمامهم اذ ذاك دليل على خالقه فكان ذلك باعثا على اتخاذ التماثيل الحجرية لبوذا وتقديسهم الثور

ولا يبعد ان « ذرادشت » قال لأتباعه يوماً ما تقريبا لافهامهم

أيضاً ان هذه « وأشار الى الشمس » نوريهديكم الى الله تعالى فلولاها لم تكن النار التي توقدون ولا النور الذى به تستضيئون ليلا ، فسرعان أن قدسوا بعده الشمس والنار والنور وذلك قياسا على تعليل ماهو عند اتباع بوذا . فالجهل وسوء التفاهم ولدا سوء الاعتقاد نعوذ بالله منه ، والا بان لم يكن ذلك كذلك فان بوذا وزرادشت لم يكونا أصحاب تعاليم سامية وهو مخالف للحقيقة اذ انهم يعتقدون ان الله تعالى قائم بنفسه أزلى أبدي الخ .وماذكرناه فيما مر آنفا بخلاف ما كان فى العصور الوسطى فقد كانت ترقت بالناس الاحوال نوعاووجد بينهم العلماء والحكماء فلم يكن للجهل مدخل فى المعتقدات ، ففى العصور الوسطى المذكوره استمر النهى عن اتخاذ معبود غير الله سواء أكان من الأصنام أم غيرها فلم يكن سوء التفاهم بين الرسل والمرسلين اليهم سوى الاصرار والعناد ، فان تواريخ الرسل وتواريخ أممهم تؤيد هذه الدعوى ، ونورد للقارىء مايمثل ذلك فنقول:

جاء فى التوراة فى الاصحاح (٤٩) عدد (١١) من سفر التكوين قوله (لايزول قضيب من يهوذا ولا مشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب) ومعناه انه لاتزول سلطنة اليهود ومملكتهم ولا المتشرعون بشرائع جديدة حتى يجىء المسيح ، فلما جاء مولانا المسيح عليه الصلاة والسلام وعلامة صدقه ظاهرة بمقتضى هذه البشارة اذ كانوا وقت رسالته تحت حكم الرومان ليست لهم حكومة خاصة كما أنه لم يكن فيهم متشرع جديد عاندوه وكذبوه واحتقروه وتسببوا فى صلبه كما يزعمون

وكانوا كلما احتج من آمن به من النصارى على صدق رسالته بهذه الآية احتج أولئك اليهود على التكذيب بما ورد فى التوراة أيضاً بالاصحاح (٢١) من سفر التثنية عدد (٢٢) وهو قوله (المعلق ملعون من الله) ومعناه ان كل من يصلب على خشبة الصلب ملعون لأنه لابد من أن يكون من الجناة الذين استوجبوا بجناياتهم القتل ، وزاد اليهود على التكذيب رميه وأمه سيدتنا مريم البتول بالافك مما لانريد أن ندنس كتابنا بايراده لكونه جاء لهذا العالم بلا أب وانبني على هذا أن ازداد العناد بين الفريقين فبالغ اليهود فى دعوى الزور والبهتان كما بالغ النصارى فى تقديس مولانا المسيح حتى جعلوه إلهاً وابن إله وانه هو والاله وروح القدس الذى كان علة الحمل به عليه السلام متحدون اتحاداً تاماً ثلاثة فى واحد لا تنفصل ولا تتجزأ ، وظلوا جميعاً أى اليهود والنصارى على هذا وذاك حتى جاء بولس فأورد فى رسالته الى أهل غلاطية بالاصحاح الثالث عدد ١٣ قوله (المسيح افتدانا من اللعنة فصار لعنة لأجلنا لأنه مكتوب فى الناموس « ملعون كل من علق على خشبة » ولو صح ان هذه الآية من قول بولس وصح انه ملهم من الله تعالى ومعصوم من الكذب لكان الخطب أعظم من دعوى كلا الفريقين معاً اذ مع القول بالاتحاد المشار اليه آنفاً تكون اللعنة شاملة الله تعالى تقدس وتنزه عن ذلك وهو كفر صريح فليحظ نعوذ بالله منه ، والا بأن كانت اللعنة خاصة بالمسيح وحده لتأكد الانفصال وكان ضد القول بالاتحاد ، فليس لهم الا أحد القولين ،

ولسنا فى معرض الجدل حتى نورد هنا نص رسالتنا المنشورة بعنوان « أسئلة اسلامية تحتاج الى أجوبة مسيحية » التى لايمكن لمسيحى ان يجيب عليها جوابا بتعقل وانصاف ، وكما أصر اليهود على جحد ورفض رسالة سيدنا مولانا المسيح فقد أصروا هم والنصارى على جحد ورفض رسالة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم لانه جاء هادما لكل تعاليمهم الا ما كان خاصا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر!

وثانياً من وجه خاص نقول : أما سبب الاختلاف بين أهل الدين الواحد الى فرق شتى هو اشتغال علماء كل دين بالتأويل من عند انفسهم واستمرارهم على تخطئة بعضهم البعض بما توحيه اليهم مداركهم وتصوراتهم كما فعل أحبار اليهود وقسس النصارى وفقهاء المسلمين ولو كان كل فريق من هؤلاء جميعاً لم يخرج فى تعليمه الناس أمر الدين عما أتى به الرسول ويكون ناقلا فقط ، وشارحا ومفهما فقط ، لما كان الى تعدد المذاهب والفرق فى الدين الواحد من سبيل ، إذ ان الله المرسل واحد والرسول المرسل هو واحد والطريق الى الحق كذلك واحد

وأما سبب انكار من ينكرون الصانع القديم سبحانه وتعالى فمبنى على ان من الناس من لايصدق الا بما تشهد به الحواس ولا مدخل لنور العقل عنده فهو لا يقتنع من طريق التفكر والتصور غالباً ، وليس هذا قاصرا على فريق الجهلاء فقط بل نرى من أهل العلم من لا يقنعه الا المحسوس اعتماداً على الحواس التى قد تخطىء فيما هى مخلوقة لتميزه فمن

الخطأ المحض الاعتماد عليها فى ادراك ذات الصانع القديم العظيم سبحانه وتعالى المحجوب عنا بحجاب العظمة والجلال ، ومن أعظم ماغلط الناس فيه قياسهم الغائب على الشاهد . فأمثال هذا الفريق من الناس متى باحثناهم وجادلناهم فان مساق البحث يرغمهم على تتبع سلسلة تعليلات الكائنات الى ان يقفوا عند سبب مجهول لهم كما سبقت الاشارة الى ذلك مرارا ، وبناء عليه فليس فى الكون واحد لايعترف بالصانع القديم عز شأنه اذ يعترف اضطرارا بالوقوف أثناء التعليل عند ذلك السبب المجهول ، وهذا انما هو اعتراف مرغم ، وما ذلك الا لانه لايريد ان يذعن لما جاءت به الرسل من وجوب الاقرار بالخالق فهو كافر من هذه الجهة التى هو الجحود بعينه وقد شاركه فى الكفر من يجحد ماجاءت به الرسل أيضاً من التوحيد الخالص فيشرك به غيره وعليه فكل مشرك كافر ولا عكس ، ونحن لانتعرض لدحض أدلة الكافرين والمشركين ونكتفى بايراد مابه تكون السلامة والفوز لكل ذي عقل وانصاف كما اشترطنا فى أول الكتاب والله تعالى هو الهادى الى الصواب لا إله غيره

الفصل الثاني

في

أدلة الموحدين المنزهين على ان الله تعالى واحد غير متعدد وانه أزلي أبدي

الدليل على انه واحد

من طريق العقل

لأجل الوصول الى البرهان الذى يصح ان يكون حكما على ان الله تعالى واحد نفرض جواز كونه اثنين ومتى قلنا بهذا الفرض أوجب علينا نور العقل ان نقول : لا بد من انهما اما ان يكونا متساويين فى القدرة والارادة أو مختلفين فيهما ، فاذا فرضنا انهما متساويان فى القدرة والارادة فلا بد من انهما فى حال تساويهما فى القدرة والارادة اما ان تكون قدرة كل واحد منهما غير منفردة بالخلق والايجاد وان تكون ارادته عين ارادة الآخر واما ان يكون كل واحد منهما قائما بذاته منفردا بقوته وارادته دون ان تتوقف قدرة وارادة هذا على قدرة وارادة ذاك ، فان كان الامر الاول بأن يكونا متساويين فى القدرة والارادة وان قدرة كل واحد منهما غير منفردة بالخلق والايجاد وان ارادة أحدهما عين ارادة الثانى فلا محل للقول بأنهما اثنان لعدم امكان انفراد أحدهما

لا بقوته ولا بارادته ، ولا معنى أيضاً للقول بألوهية أحدهما ، إذ أن معنى الألوهية يعطى الانفراد بالغلبة والقهر والسلطان وعدم الافتقار للغير. وان كان الأمر الثانى بأن يكون كل منهما منفرداً بقدرته وارادته دون ارتباطه بالآخر فى أية واحدة منهما فلا بد في هذه الحال من أن يذهب كل واحد منهما فى الخلق والايجاد الى غير ما يذهب اليه الآخر فيقع النزاع بينهما فيختل النظام وهو مالا يصح فرضه بل يثبت بطلانه، واذا فرضنا انهما مختلفان فى القدرة والارادة بأن يكون أحدهما أقوى قدرة وأنفذ ارادةً فلابد أن يكون أحدهما أكبر والثانى أصغر ، وما دام أن معنى الألوهية يعطى الانفراد بالعظمة والكبرياء فحينئذ يكون الأصغر عاجزاً أمام الأكبر الذى يكون هو الاله وبناء عليه فيثبت المطلوب من أن الاله يجب أن يكون واحداً لا متعدداً ، وثبوت عدم جواز فرض كونه اثنين يؤكد بالقياس عدم جواز فرض كونه أكثر من اثنين . وان وحدانيته تفيد أنه واحد فى ذاته فلا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتركب ، وواحد فى أفعاله فلا شريك له ولا نظير ، وواحد فى صفاته فلا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، وهذا الدليل العقلى هو معنى ماجاء بالقرآن فى سورة الأنبياء قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) وفى سورة قد أفلح قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان من إله اذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) وفى سورة بنى اسرائيل قوله تعالى (لو كان

معه آلهة كما تقولون اذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) .

الفصل الثالث

الدليل على أنه تعالى أزلي أبدي من طريق العقل

اننا لو تمشينا مع العقل وقسنا الشأن في الخالق على الشأن في المخلوق لأخطأنا القياس ، وذلك لأن الشأن في كل كائن مخلوق ان يكون له وجود سبقه عدم فيكون لوجوده حينئذ ابتداء بعد ان أوجده موجد كما ان كل كائن مخلوق سيصير الى العدم ويكون وقتئذ لوجوده انتهاء ومن صار موجوداً بعد ان كان معدوماً ويصير معدوماً بعد ان صار موجوداً لا يكون قادراً على الخلق والابداع بلا سابقة مثال بل لا يكون الهاً صانعاً لأن الاله الصانع لا يكون شبيها بما صنع وخلق بل يجب ان لا يشبهه مخلوق لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ووجب أن يكون وجوده ليس عن موجد أوجده بل لابد من أن يكون واجب الوجود وقائما بنفسه بلا افتقار الى غيره ويكون أزلياً أبدياً ، اذ لو فرضنا أن له موجدا وان لذلك الموجد موجداً آخر وهكذا فلا بد لنا من أحد أمرين فاما أن ننتهي الى موجود بلا موجد واما أن لا ننتهي الى ذلك الموجود ، فاذا كان الفرض الأول وانتهينا الى موجود بلا

موجد فيكون هو الالـه الحق ويكون الفرض بأن له موجـدًا آخر هو فرض باطل ، وان كان الفرض الثانى ولم نقف عند تصور موجود بلا موجد فلا بد من أن يستمر التسلسل الذى هو ترتب أمور وتعاقبها فى جانب الأزل بلا نهاية وهو فرض المستحيل. فثبت انه أول بلا ابتداء أى أزلى ، واذا جرينا على الفروض الوهميـة التى يفرضونها قياساً على ان البيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة الى مالا نهاية له وقلنا ان الالـه الذى يتوقف وجود العالم على وجوده هو كذلك يتوقف وجوده على وجود العالم فلا بد من أن يستمر الدور الذى هو ترتب وجود كل من الشيئين على وجود الآخر فيكون كل منهما موجودا قبل وجود سببه فيلزم على هذا أن يكون موجودًا قبل وجود ذاته وهو واضح البطلان ، ويكون الفرض مستحيلا كذلك . واذ ثبت بطلان الدور والتسلسل وانه سبحانه وتعالى أزلى فما لاشك فيه أن يكون أبدياً بلا انتهاء لان الذى لا بتداء لوجوده لا بد من أن لا يكون لوجوده انتهاء اذ الذى يهب الحياة بعد أن يوجدها يستحيل عليه الموت خصوصاً وان أحوال الكائنات تدل على ذلك وتثبته بأجلى بيان إذ هى مستمرة التسخير بين عوامل الحركة والسكون والوجود والعدم والانتقال من حال إلى حال تحت سائر الأعراض بالقهر التام ويستحيل أن يكون كل هـذا من لدن سوى الأزلى الأبدى القاهر فوق عباده على الدوام لا إلـه غيره بهذا الدليل وسابقه لا يفتقر الناظر فى كتابى هـذا إلى الأدلة

الأخرى التي ولّدتها المجادلات والمباحثات في شان مبدع الكائنات، فان دليل الوحدة يقتضي أن يكون الالٰه إلٰها فردًا منزهًا عن الشريك والضد والند والمثيل والمعين والصاحب والصاحبة والوالد والولد اذ لو يكون له واحد من هؤلاء المذكورين لما يصدق عليه تعالى انه واحد، ومن حيث كونه واحدًا لا نظير له فهو حي قادر مريد عالم سميع بصير متكلم، ومن حيث ثبوت انه أزلي أبدي فهو مخالف لكل حادث وقائم بذاته بلا افتقار الى غيره، اذ كيف يكون إلٰها واحدا أزليا أبديا ولا يكون متصفا بهذه الصفات وغيرها من صفات الكمال جميعها اي كيف لا يريد ولا يقدر ولا يعلم الخ وكيف لا يكون حيا أو يكون مماثلا للحوادث من الموجودات أو قائما بغيره بالافتقار الى موجد تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا، فان كل صفة تناقض هذه الصفات تخرجه عن أن يكون إلٰها وكيف يتصف بواحدة من أضداد هذه الصفات التي لو اتصف بواحدة منها مخلوق كصفات العمى والجهل والصمم والبكم الخ لأ لصقت بالموصوف بها عيبا يجعله في حال أدني من حال أمثاله المخلوقين فكيف بالخالق سبحانه وتعالى، فلا ينبغي لأحد أن يورد مثل هذه الفروض على ذهنه مطلقا حتي ولا للبرهان على نفيها لأن الذي يحتاج لبرهان من أمثال تلك البراهين على نفي صفات الأضداد عنه سبحانه وتعالى جاهل وغبي بل مجنون لا عقل له، ولا ينبغي لأحد أيضا أن يشتغل بالبحث من حيث ان صفاته تعالى هي عين ذاته أو غير

ذاته أو زائدة على ذاته لأن القول بهذا وذاك فيه تعرض للبحث في كنه الذات فالحق انه لا يعرف كيف هو الا هو والعجز عن الادراك ادراك لقوم يتبصرون ،

واذ كنا نرى الشمس بأعيننا وهي ذرة من مخلوقاته وأمثالها كثير في الفضاء الذي لانهاية له أفلا يخجل من يتعرضون للبحث في كنه ذاته سبحانه وتعالى فيدعي من يدعي انه مثلث الأقانيم أي الاصول أو مسدسها أو اثني عشريها أو انه حالّ في انسان أو حيوان أو جماد ثم يقيمون عليه الحجج والبراهين الواهية الساقطة التي لا تنطبق على قضايا العقل السليم مطلقا لاثبات مايذهبون اليه من المذاهب الفاسدة ، فسبحانه من اله عظيم مازال ينشر لواء حلمه على خلقه الى يوم يطول فيه الحساب

الفصل الرابع

أسماؤه سبحانه وتعالى

ان هذا الاله العظيم الواحد الاحد الفرد الصمد ليس هو كفرد من افراد الخلق حتى يكون كنكرة شائعة في جنسها فيفتقر الى اسم من الأسماء لتميزه به ، كلا ، ولكن اسمه (الله) اسم جامع لما ينطوي في لفظه من شؤونه سبحانه وتعالى من العظمة والجلال والكبرياء ولا بد أن يكون وضعه سيدنا آدم أبو البشر بالهام وتوفيق من الله

تعالى كغيره من الاسماء التى هى كالصفات حتي لا يدعوه مخلوق بما لا يتناسب مع جلال ذاته عز وجل ، وهذا الاسم (الله) متحد فى سائر اللغات معنى وان اختلف فيها لفظا ومبني وليس لله سبحانه وتعالى اسم يتضمن معنى العلمية فقط بل ان كل اسم من أسمائه تعالى يتضمن معنى آخر وهى من هذه الجهة قسمان قسم يطلب العالم والعالم يطلبه كاسمائه الرب والرزاق والخالق والنافع والضار والقادر والوهاب والمحي والمميت والقهار والمعز والمذل وهكذا ، فكل اسم من هذه الاسماء وأمثالها يشير بمعناه الى طرفين لا انفكاك لاحدهما عن الآخر ، فالرب لا بد له من مربوب والمربوب لا بد له من رب والرزاق لا بد له من مرزوق والمرزوق لا بد له من رزاق ، والخالق لا بد له من مخلوق والمخلوق لا بد له من خالق وهكذا ، وثانيهما قسم يطلب العالم ويشير الى معنى كونى تنزه الله سبحانه وتعالى عنه كأسمائه القدوس والحميد والمجيد ، فالاسم «القدوس» يشير الى انه تعالى منزه عن صفات النقص والى ان الخلق يعتريهم ما يضاد القداسة ، والاسم « المجيد » يشير الى ان الله تعالى مختص بالمجد والشرف الكامل التام والى ما يعترى المخلوقين من الصفات التى تباين الشرف على العموم والشرف الكامل التام على الخصوص والاسم «الحميد» يشير الى ان الله تعالى مختص بالصفات الحميدة التى لا يليق معها الحمد لغيره والى ما يعترى المخلوقين من الصفات التى لا تجعلهم أهلا للحمد وهكذا . وأسماؤه تعالى المشهورة عندنا معاشر المسلمين تسع وتسعون اسما هى توحيدية وتنزيهية وتكوينية

وكلها متفرقة فى سور القرآن الكريم الذى هو كلام الله القديم جل شأنه ، ويشير اليها فيه قوله تعالى : (قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الاسماء الحسنى)[1] وقوله تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون)[2]

تفريع

وبما ان هذا الاله العظيم واحد فرد واجب الوجود فافعاله وصفاته واسماؤه واجبة الوجود

وبما ان اسماءه التكوينية واجبة الوجود من جملة اسمائه فواجب ان تكون لها مظاهر تتجلى بها معانيها وما تلك المظاهر الا الموجودات التى تعلقت بها قدرة وارادة وعظمة حضرة الاله العظيم واجب الوجود فأوجدتها على هذه النظم البديعة لتدل على انه واحد من جميع جهاته واحد فى عموم صفاته واحد بتعدد اسمائه التى تليق بجلال ذاته وعلى انه يتعالى عن أن تدركه العقول ، وانه يستحيل ان يكون لما يعترى المخلوقين من النقص ، اليه وصول ، وانه الواحد المعبود الذى اليه يرجع كل موجود

ولقد كثرت الكتب الكبيرة الحجم العديدة المجلدات فى شأن هذا الخالق العظيم ولقد تخبط كثيرون من الفلاسفة فاكثروا فيه من الآراء المختلفة التى لم يخل اكثرها من خلط وخبط لاستحالة ان يكون المخلوق الضعيف المكوّن (اسم مفعول) محيطاً بالتعليلات التى يراد بها الوقوف على حقيقة أفعال الخالق المكوِّن (اسم فاعل)

---

(١) الاسرا (٢) الاعراف

انه ليس من برهان حقيقي ودليل يقيني يكيّف كيفية التكوين بلا ما ورد في كلامه القديم من قوله جل من قائل : (انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) [1]

ان لفظ الامر في هذه الآية الكريمة وهو « كن » يغنينا عن البحث في كيفية التكوين فانه يدل على اختصاصه بسر التكوين اذ لا شريك له فيه ويدل من وجهة أخرى على أنه من السرعة بحيث يقترن الايجاد بلفظ الامر ، ومع هذا فلا يناقض سرعة التكوين شهود المكوّنات تستغرق زمناً ما في تمام التكوّن طولاً وقصراً في الزمن بالنسبة لنا لا له سبحانه وتعالى اذ لا يمر عليه جل شأنه زمان . ولقد صدق الفلاسفة الاسلاميون في قولهم : ان الله تبارك وتعالى لم يبدع سائر الموجودات دفعة واحدة لكيلا تجتمع المتضادات وانتفا بلات في شيء واحد في زمان واحد من جهة واحدة فدل ذلك على حكمة سامية نفعها عائد علينا فقد فتح بها أمام أعيننا طرق الاستدلال على وجوده ووحدته وجلاله وكماله وعظمته فلا عذر بعدها لمستبصر . ولهذا أكثر سبحانه وتعالى في الكتاب العزيز من قوله جل شأنه : « أفلا يعقلون » و « أفلا يبصرون » و « أفلا يتدبرون » و « أفلا يتفكرون » الخ

ولقد يدل على ان الموجودات لم تتم دفعة واحدة في التكوين قوله سبحانه وتعالى (ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) [2]

(١) يس (٢) اعراف

قد تبين مقدارها فى قوله تعالى (ان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) أى ان أن السنة أيام هى ستة عصور وهذا يؤيد ما قاله علماء الفرنج فى علم طبقات الارض ، ويدل كلام الله القديم بهذين الآيتين وأمثالهما انه تعالى أبدعها من عنده سالكة سلسلة الترتيب التى أراد هالها جل شأنه فكان أقربها اليه أشرفها ، ذلك من جهة ارادته والا فكلها صنع يده ونتيجة إبداعه وهناك انحار مدارك صغار العقول فيجب ان لا تكون هذه النقطة موضع مناقشة

تفريع ثان

ولما كانت الموجودات عوالم شتى منها ما هو عالم نورانى ومنها ما هو عالم ظلمانى وكلها مشتمل على صنوف من المخلوقات لا حصر لها

ولما كانت العوالم النورانية شاملة لأرواح نورانية مجردة وغير ملابسة للمادة على عكس سكان العوالم الظلمانية التى هى أرواح نورانية ملابسة للمادة ، ولما كانت هذه الأخيرة تحت سلطان الوجود والفناء وسلطان التركيب والنمو قبل الفناء ، وكانت منذ وجودها الى وقت فنائها منوط حفظها بقوى أرواحها التى هى محل التنازع بين عالمين : نورانى صدرت عنه وظلمانى وردت عليه ولكل واحد منهما شؤون يقتضيها ، ولما كان من شؤون هذا العالم الظلمانى ما يستلزمه بقاء النوع الانسانى بالتناسل عن الزواج واللقاح وهذا انما يستلزم الغذاء واللباس والمسكن وكل هذا يستلزم التعاون والاشتراك ولا يمكن ان يتولى واحد منهم بنفسه جميع

ما يحتاج اليه من لوازم التعيش فصاروا مضطرين الى ان يتعاونوا فيقوم كل فرد منهم بما يحتاج اليه المجموع اذ لولا ذلك لتراكمت على الفرد منهم من ضروريات عيشه ما يستحيل عليه القيام بعشر معشاره وحده ، وفي هذا ما فيه من اشتغال كل منهم بما يقعيه عن عالمه الذي صدر عنه بل يجعله منغمساً في اللذائذ المادية التي الاكثار منها يستوجب الطمع المستوجب للأنانية وارتكاب الظلم المستوجب للانحراف عن الانصاف والعدل خصوصاً لأن الناس متفاوتة أقدارهم من حيث قبول الخير والشر والفضيلة والرذيلة وذلك لتفاوتهم في أمزجة أبدانهم وقوى انفسهم وتباينهم في استعدادهم وتخالفهم في أميالهم ولرؤية الفرد منهم ان لنفسه حقاً على غيره وان لا حق لغيره عليه فيتحكم حب النفس فيه الى إثارة قوة غضبه وشهوته فلا تذعنان لسلطان العقل ، فلكي يخرجوا من تبعة التغلغل فيما هو ليس في حكمة ايجاد الخالق لهم في شيء قد لطف الله سبحانه وتعالى بهم فأفاض عليهم نعمة التكليف بقانون سماوي مشتمل على أوامر يجب اتباعها ونواه يجب اجتنابها حتى يكونوا سائرين في طريق الوصول الى الغاية التي برأهم بارئهم لأجلها فكان هذا التكليف مدعاة الى حكمة ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام

تم الكتاب الاول ويليه الكتاب الثاني

فهرست هذا الكتاب

صحيفة

١ خطبة الكتاب لابانة الغرض فى تأليفه

٤ المقدمة فى لفت الانظار الى وجوب اليقظة والتبصر والعمل لسلوك سبيل النجاح

٨ كلام على الروح

١٤ الباب الاول (معلوم مجهول أو مجهول معلوم)

١٥ اثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى من طريق الفلاحة

٢٢ » » » » » » » الصناعة

٢٥ » » » » » » » التجارة

٢٩ » » » » » » » الرياضة

٣٥ » » » » » » » الميكانيكا

٣٧ » » » » » » » الطبيعة

٤٣ » » » » » » (الكيمياء

٤٨ » » » » » » » الفلك

» » » » » » » » الطب

٦٠ » » » » » » » الادارة والنظام

٦٢ دليل عام على وجود الصانع القديم سبحانه وتعالى

٤٦ الفصل الاول ـ فى بيان اختلاف الناس من حيث معرفة الصانع القديم

سبحانه وتعالى
٧٢ الفصل الثانى فى ادلة المنزهين على ان الله سبحانه وتعالى واحد غير متعدد
وذلك كله من طريق العقل
٧٤ الثالث على أنه أزلى أبدى وذلك من طريق العقل أيضا
٧٧ الرابع فى اسمائه تعالى
٧٩ تفريع فى حكمة التكوين
٨١ تفريع ثان فى حكمة التكليف

obeikandl.com

مواضيع الكتاب الثاني المشار اليه

١ حاجة الخلق الى الرسل واثبات صدق رسالتهم

٢ كلام عن حضرة صاحب الرسالة خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم وانه أحق الرسل بالاتباع

٣ كلام على التوبة

٤ العبادات وأقسامها

٥ بعض ما يهم ذكره لعامة الخلق من أبواب المعاملات شرعاً

٦ خلق الاعمال وشرح مسأله القضاء والقدر بأسلوب لا يستعصى على العقل فهمه ولا ينافي مقصد الشرع الشريف نظمه والتدليل على ان التوكل لا ينافي الاخذ بالاسباب

٧ ذكر كثير من الحكم والمواعظ الصالحة للدنيا والأخرى